الإسلام .. وتحقيق الذات

د. محمد عبد المنعم خفاجي

الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس: ٥٣٥٤٤٣٨ - الإسكندرية

الإسلام .. وتحقيق الذات

الإسلام وتحقيق الذات

د. محمد عبد المنعم خفاجى

كمبيوتر: (دار الوفاء)

طباعة: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

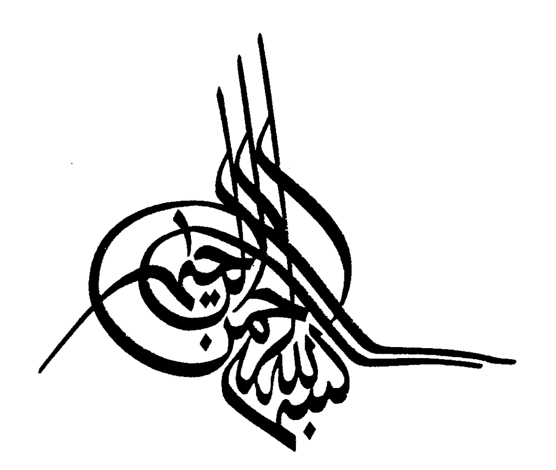
ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن دربالة - بلوك رقم٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية

رقم الإيـــداع: ٢٠٠٢/٩٤٧٠

الترقيم الدولى:1-259-327-977


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله

تصدير

إلى غد مشرق

إلى حياة جديدة مثلى

إلى شاطئ النجاة والأمن والسلام

إلى الحلم الذى نعيش لنحققه لذاتنا ومن أجل مستقبلنا ومستقبل أجيالنا؛ نحققه بالإيمان، وبالعمل الصالح وبالروح الصامدة، وبالعزم والإصرار والأمل، وبنور الله، وعون السماء، وبكل فضائل الإنسان.

وبالله التوفيق والهداية،

المؤلف

الكلمة الأولى

هذه الدراسات فى الإسلام وتحقيق الذات أكتبها لجيلنا والأجيال القادمة، لعلها تضىء الطريق، وتستحث الخطى، وتقربنا من الهدف، ولبلوغ الغاية المرجوة والأمل المنشود.

والإسلام عطاء وفكر وعقيدة وثقافة وحضارة، وفيه لعصرنا ولكل العصور والأجيال والبينات الخير والأمن والسلام والرجاء والرخاء.

ولا أدع نفسى يتملكها الفخر، وتملؤها النشوة، لأننا أبناء أرفع رسالة وأسمى دين، وأكرم شريعة، وأروع حضارة، فإنى ابن عصرى وزمانى ومكانى وما أقوله هنا اليوم قاله قبلى، ويقوله بعدى ملايين المفكرين والمصلحين والرواد والعلماء.

ولكنى أترك القلم، ليقرأ القارئ، وليتأمل الناقد، وليقول الحكم .. فحكمه النزيه يجعلنا أصدقاء المسيرة، ورفقاء الطريق، وإخوة الإيمان والمثابرة والعمل من أجل تحقيق ذاتنا والنهوض بأمتنا والعمل على رفعة وسعادة شعوبنا.

وما توفيقى إلا بالله،

المؤلف

أنا مؤمن

أنا مؤمن ..

وياله من شرف كبير يطوق جيدى بقلائد الفخار والمجد أن أكون مؤمنا..

أنا مؤمن ..

وما أكرم هذا الوسام الذى أتوشح به، وأرى نفسى فيه، ويرانى الناس به، وهو أن أكون مؤمنا ..

أنا مؤمن ..

وما أعز هذا التاج الذى توجنى الله به، وجعلنى به من طبقة الماجدين والطاهرين والطيبين والموحدين، وهو تاج الإيمان، وكرامة الإسلام ..

أنا مؤمن ..

إذن أنا إنسان، إذن أنا ابن الأصلاب الطاهرة، إذن أنا أعرف آبائى وأجدادى كما أعرف أبنائى ويعرفوننى .. إذن أنا ابن الطهارة والشرف والأصالة والأعراق الطيبة الطاهرة .. إذن أنا ابن الإسلام والقرآن والإيمان .. إذن أنا ابن الأخلاق والفضيلة والأمانة والمروءة والعفة والصفاء والنقاء ..

أنا مؤمن ..

إذن أنا حى، موجود حر، إنسان، ملاك يعبد الله فى الأرض، حتى تنتهى رسالته فى الحياة .. إذن أنا خليفة الله فى أرضه، ابن آدم عليه السلام وإبراهيم خليل الله، ومحمد سيد النبيين وخاتم المرسلين .. إذن أنا موحد يرفع دائمًا رأسه للسماء، يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، يؤمن بالزبور والتوراة والإنجيل والقرآن، يؤمن بموسى وعيسى ومحمد أشرف خلق الله، يؤمن بالحساب والثواب والعقاب والآخرة دار بقاء وخلود، يؤمن بأن الله وحده هو مالك الملك، وسع كرسيه السموات والأرض، له مقاليد السموات والأرض، والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة

والسموات مطويات بيمينه، هو الله الذى لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى، يسبح له ما فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم..

أنا مؤمن ..

الملائكة جميعًا معى فى غدواتى وروحاتى، الله يحوطنى بعين رعايته وعنايته، والكون كله يرانى أهلاً لأن أكون سيده، وأن أصبح بإيمانى أفضل مخلوق فيه .. مؤمن والله، يشيع الإيمان فى نفسى الثقة والاطمئنان، والشعور بالأمن والأمان، والتفاؤل بالحاضر والمستقبل، وحب العمل، وحب الإنسانية كلها.

وفى ظل الإيمان يختفى العدوان والجريمة والتهور والتطرف، وكل الأعمال المنافية للعرف والفضيلة والقيم العالية.

وفى ظل الإيمان يعيش الإنسان فى سلام دائم .. سلام مع نفسه، ومع أهله، ومع المجتمع الذى يعيش فيه ومع الإنسانية كلها، لا عدوان ولا بهتان ولا طغيان .. سلام .. لأن الله عز وجل هو السلام ..

وفى ظل الإيمان ينصرف كل إلى عمله وإلى زيادة الإنتاج، وإلى حب الناس، وإلى أداء الواجب على أحسن وجه، وإلى الإسهام فى نشر الرخاء والرفاهية فى المجتمع، وفى رقى الأمة ونهضتها وتقدمها ورقى مستوى الحياة فيها، وإلى العمل من أجل الإنسانية والبشرية كافة.

وفى ظل الإيمان يجنى كل إنسان ثمرة عمله وكده، وينطلق إلى ميدان الكفاح والسعى فى الأرض، فى تنافس شريف بعيدا عن الحقد والحسد والبغضاء والخصومة والنزاع والفساد والشر، وينهض بالعمل فى مختلف الميادين، فى أمانة والتزام وحمل للمسئولية، وأداء للحقوق، وحرص على العدل والإنصاف والإحسان، فى توازن دقيق بين الحق والواجب.

وفى ظل الإيمان توزن الكفايات، ويوضع الرجل المناسب فى المكان المناسب، كل بحسب كفاءته وعمله، وكل فرد فى مكانه الصحيح الذى تؤهله له

قدراته ومواهبه، دون محسوبية أو شفاعة أو واسطة أو محاباة، لا جنوح للتسيب والانفلات والفساد، ولا يحكم الجاهل العالم، بل تسير الأمور والأعمال فى دقة وانتظام واتقان.

وفى ظل الإيمان امنح حقوقى، وانهض بواجباتى، وتعطى لى حرياتى، وأعيش فى أمن شامل يصون المجتمع ويدفعه إلى النهوض والسعادة والرفاهية.

وفى ظل الإيمان يسير الشعب وينهض إلى الأخذ بأسباب التقدم ..

الدين يسر والخـلافة بيعـة

والأمر شورى والحقوق قضاء

العدل عام شامل، والحاكم خادم لا سيد، ومصلحة الجماعة تتوازن مع مصلحة الفرد.

وفى ظل الإيمان أرفع رأسى ولا أخفضها، واعتز بكرامتى ولا أهينها، الأمور كلها بيد الله، لا يملك المخلوق ضرا ولا نفعا لأحد، ولا يستطيع عمل شىء إلا بإذن الله.

أنا مؤمن .. الحياة كلها فى قبضة يدى، الدنيا كلها تحوطنى بحبها، البشرية كافة تقدرنى وتحترمنى.

لى الماضى والحاضر والمستقبل ..

لى الأمس واليوم والغد ..

لى النور والأمل والسعادة ..

لى الخير والرحمة والعون من الله ..

معى الله دائمًا.

معى رحمته وفضله وإحسانه.

مع البشر والبشرى والأمان

معى كل مجد فى الحياة،

د. محمد عبد المنعم خفاجى

هدى القرآن الكريم

الإسلام العظيم، ديننا الخالد، دين الإنسانية كلها، دين الخير والرحمة والأمانة والوفاء، عقيدة يؤمن بها المسلم، وشريعة عمل يلتزم بها فى سلوكه وحياته وفى كل لحظة من لحظات عمره..

إنه عقيدة وعمل وفق الشريعة ..

إنه إيمان وسلوك على طريق الإيمان ..

إنه أيديولوجية كاملة بانية متسامية .. لا يفصل فيها العمل عن العقيدة ولا العقيدة عن العمل،

إنه السمو بالإنسان روحا وبدنا، قلبا وجارحة، نفسا وسلوكا ..

إنه طهارة الروح وطهارة الجسم، وطهارة الخلق، وطهارة العرض، وطهارة الشرف.

والإسلام ليس قولا فحسب، بل قول وفعل، وليس عناية فحسب، بل وغاية وسلوك من أجل الوصول إلى الغاية ..

الغاية هى رضاء الله، وهى خلافة الله فى الأرض، وهى إدراك أعلى الدرجات عند الله فى الدنيا والآخرة ..

والعمل هو كل ما يوصل الإنسان لبلوغ هذه الغاية من عمل وسلوك وآداب وأخلاق وفضائل، وقول ونية وعزيمة صادقة خالصة لله رب العالمين ..

الإسلام فى عقيدته توحيد خالص، لا شرك فيه، إيمان كامل لا تشوبه شائبة من رياء أو زيف وهو فى شريعته عبادات وطاعات ورسوم وفرائض وحدود وسلوك وأخلاق وآداب ومثل عالية شريفة، يعمل بها ولها المسلم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ..

المسلم هو مثل عال للأمانة والرحمة، والخير والحق والعدل والإحسان والصدق والوفاء، وأداء الحقوق، والالتزام بالمسئولية هو الضوء الباهر في ظلمات الحياة، هو العزم المتجدد إذا ما وهنت عزائم الرجال وانطفأ مصباح الأمل.

المسلم صادق أمين، وفي أبي، شريف عفيف، كريم رحيم، قوى في الحق، إنسان في نوائب المعروف .. وقد وصف الله عز وجل رسوله الكريم والمؤمنين من أصحابه فقال عز وجل:

"محمد رسول الله

والذين معه أشداء على الكفار،

تراهم ركعا سجدا

يبتغون فضلا من الله ورضوانا،

سيماهم في وجوههم من أثر السجود".

عزة النفس والقوة في الحق، والرحمة الخيرة والإخلاص لله وطلب عونه ومرضاته، والعبادة التامة الكاملة لله رب العالمين .. صفات ما أجملها وأكرمها في حلقة العقيدة والشريعة ..

ونحن المسلمين، وفينا القرآن الكريم، وتعاليم سيد المرسلين هل ينقصنا منهج كامل للعمل والحياة؟ هل تنقصنا تعاليم ترشدنا إلى خير الدنيا والآخرة؟ هل ينقصنا نور يضيء لنا الطريق؟

كلا .. كلا ..

إن معنا هدى القرآن الكريم، ومعنا كل تعاليم وحي السماء، ومعنا الحق المبين والخير العميم، ومعنا ما يبلغنا شرف الدنيا والآخرة، ومعنا دعوة التوحيد ورسالة الإيمان، وعقيدة الطهر، وشريعة العمل ..

معنا .. معنا ..

فحي على العمل .. حي على الفلاح،

رسالة السماء

عصرنا العجيب الذى نعيشه عصر مملوء بالمتناقضات التى لا تخطر على بال..

يحلم الإنسان بالرخاء يأتيه من السماء، وهو حلم بعيد المنال ما دام الإنسان يصرف على صناعة آلات الحرب أكثر موارد الشعوب، وما دام يعمل على أن تعيش شعوب كثيرة فقيرة مهيضة الجناح، ليبقى هو سيدها، والذى يروج لصناعاته فيها، والذى يسعى ليظل متحكما فى ثرواتها، ويعمل بكل جهده على أن تظل متأخرة فقيرة جاهلة بعيدة عن أسباب التقدم والرخاء.

ويحلم الإنسان بمجتمع إنسانى يسوده الحب والسلام، وهو حلم أشبه بالمستحيل، ما دام الإنسان نفسه يشرع للتفرقة العنصرية ويعمل لتبقى شعوب متقدمة وشعوب متأخرة تحسب من الدول النامية، وتعيش دون مستوى غيرها من شعوب الحضارة.

ويحلم الإنسان بحضارة مثالية تعمل من أجل القوى والضعيف، والغنى والفقير، والكبير والصغير، والرجل والشاب والطفل والمرأة .. وهو حلم حالم ليس له منه إلا الأمل والألم، ما دام الإنسان يسعى ليظل الفقراء فقراء والأغنياء أغنياء، وليبقى الأقوياء أقوياء والضعفاء ضعفاء.

ويحلم الإنسان بحياة أفضل، وكيف تتحقق له هذه الحياة الفضلى؟ وهو يعيش بين الإلحاد والكفر، يعبد الجنس والمال من دون الله، ويسعى فى الأرض بالفساد، ويركب جواد الغرور والكبرياء ما دام يعيش فى ثروة وفراغ وصحة .. وكما يقول شاعرنا العربى أبو العتاهية:

إن الشباب والفراغ والجدة

مفسدة للمرء أى مفسدة

إن حلم العصر لن يتحقق فى ظل مادية قاتلة، ولا فى ظل عصبيات القوة والجنس والثراء .. وحلم العصر .. لا ولن يتحقق إلا فى ظل شريعة السماء، فى ظل القرآن الكريم، ودين الإسلام العظيم الخالد.

الإسلام هو الذى حقق حلم الأجيال، نشر السلام فى الأرض، وغرس المحبة والإخاء والمساواة فى قلوب الناس، هو الذى ساوى بين البشر أجمعين، هو الذى نشر الرخاء فى كل مكان، حتى أصبح المجتمع الإسلامى وليس فيه فقير يمكن أن تصرف له الزكاة، وليس فيه محروم يمكن أن يسعى غنى له بالصدقة.

الإسلام هو الذى جعل المجتمع الإنسانى مجتمع محبة وأخوة عامة فى الله وفى الإنسانية، وحمى حقوق الإنسان ورعاها، ونشر العدل فى كل مكان، وجعل سلطان الشريعة وحدها هو القول الفصل والحكم العدل فى كل شئون الحياة، ومشكلات المجتمعات.

الإسلام وحده هو الذى نشر شريعة التوحيد فى العالم، وحارب الوثنية والشرك، وأهدر سلطانهما على الشعوب، وجعل كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وأخرج الإنسان من الظلمات إلى النور، ورفع من كرامته فى الحياة، وحمى حقوقه كاملة ورعاها.

الإسلام العظيم هو دين القيمة .. ودين البينة .. ودين السلام، ودين الحب، والإخاء.

الإسلام وحده هو دين التقدم والحضارة، ودين المجتمع الإنسانى المترابط المثالى، ودين النور والعلم والمعرفة، ودين التقدم والحياة.

إنه رسالة السماء، كتابه القرآن الحكيم، ورسالته رسالة التوحيد، وهدفه سعادة الإنسان والإنسان،

الإنســان والـــديــن ..

الدين فطرة الله التى فطر الناس عليها، لابد منه، لا غنى عنه، لا بناء بدونه، ولا حضارة بغيره، ولا تقدم أو رخاء عند فقدانه.

الدين هو السعادة فى الدنيا والآخرة، وهو الطمأنينة النفسية للإنسان فى خضم الحياة، وهو المنقذ للغرقى فى لجّ الأحداث .. هو دائمًا صمام الأمان.

ولقد سيطر الفكر الغربى العلمانى والإلحادى والوجودى والماركسى أمدا طويلا على العقل الأوروبى سيطرة شديدة، وحورب الدين حربا شعواء، ونظرت إليه المذاهب المعتدلة على أنه تراث يأخذون منه حينا ويرفضونه حينا آخر. واعتبرته المذاهب الأخرى خرافة وأسطورة، ونظرت إليه الماركسية على أنه عبث لا يمكن قبوله، وهكذا جوبه الدين من العقل الغربى مجابهة شديدة. وتجاوز هذا العقل تراث العصر المسيحى إلى تراث اليونان والرومان .. واعتبرت الآداب اليونانية واللاتينية هى المنجم الذهبى الذى يرجع إليه أدباء عصر النهضة، وعادى الكتاب والمفكرون والعلماء والأدباء والشعراء الفكر الدينى عداء شديدا .. وها نحن أولاد اليوم نشهد سقوط الماركسية واللينينية والشيوعية، مما يعدّ معجزة إلهية.

وحين سيطرت العبثية فى منتصف القرن العشرين انهالت على الشعور الدينى بالنقد والعداء .. ومن قبل أعلنت المدرسة الجمالية عدم الالتزام بقيم المجتمع الخلقية والدينية، وهى فلسفة سادت منذ القرن التاسع عشر حتى قال أوسكار وايلد: "ليس ثمة كتاب يوصف باللا أخلاقى" .. بينما صرح اندريه مالرو فى كتابه (إغراء الغرب) عام ١٩٢٥ بأنه "فى القلب من الإنسان الأوروبى عبثية جوهرية تسيطر على اللحظات الكبرى فى حياته".

ومسرحيات اللامعقول تعبر - كما يقول د. أكرم العمرى فى كتابه: "التراث والمعاصرة" عن خيبة الأمل .. وضياع اليقين .. وتظهر انعدام روح الدين، وضياع

العقل، وهو فكر عام يميز هذه المرحلة من تاريخ الحضارة الغربية فى النصف الأول من القرن العشرين .. وقد جعل الكتاب المسرح. مركز تجمع لصراع الخيال البشرى الدائم ضد الروح الدينى .. وعانت الحضارة الغربية بسبب ذلك كله الهوان بسبب الخواء الروحى والإفلاس الخلقى .. مما يعرضها للسقوط، ولقد عبر عن ذلك كولن ويلسون بوضوح فى كتابيه (اللامنتمى وسقوط الحضارة). وأخذت الآداب الأوروبية تعيش مع الأساطير اليونانية وتستمد منها ترجع إليها متجاوزة فكر العصور الوسطى بفلسفتها المسيحية، وقيم الحياة اليونانية مما والرومانية تحمله من عنصرية وصراع وحرب للقوة وانغماس فى الشهوة والمادة، صارت بحركة الإحياء سمتا للحضارة الغربية المعاصرة، والتى لم تعد النصرانية تمثل فيها أكثر من صيغة باهتة أمام الألوان الناصعة للمادية الإلحادية المهيمنة ..

ومن هنا نرى من يمجد العصر اليونانى القديم من أمثال الشاعر الإنجليزى بايرون .. والشاعر الألمانى هلدرلن، والفيلسوف الألمانى نيتشه ..

كل ذلك كان منار نقد من بعض المفكرين الغربيين المنصفين، فترى "كولن ويلسون" صاحب "اللامنتمى" يتوجس خيفة من حضارة العصر التى يحياها الغرب والعالم معه، والتى هى سبب لكل ما يلاقيه الإنسان المعاصر من شرور، لما طبعت عليه الحياة الغربية من فساد وترف وانحلال .. وترى طبيبا كبيرا هو (البرت شيفتزر) يرحل إلى أفريقيا هربا من الحضارة الغربية المعاصرة، وما جرته على الإنسان من قلق وتوتر واضطراب وعدم استقرار ..

ويتنبأ المؤرخ الإنجليزى توينبى بانهيار حضارة الغرب المعاصرة، كما انهارت حضارة روما، وكولن ويلسون يرى أن عالم اليوم يمر بنفس الظروف التى مرت بها حضارة الرومان عندما انهارت أثناء انتشار المسيحية .. ويقول مفكر غربى .. إنه ليس بالبعيد أن نقف على أطلال عواصم الغرب الكبرى نبكيها كما وقف الإنسان القديم على أطلال المدن الكبرى القديمة باكيا حزينا ..

ويجىء جارودى المفكر الفرنسى ليعلن سقوط الحضارة الغربية وحتمية الرجوع إلى الإسلام وحضارته الخالدة ..

ولقد ورث الإسلام حضارات العالم القديم، ثم نهبت أوروبا مواريث الحضارة الإسلامية، وها نحن أولاد اليوم نعيش لنرى فى القريب سقوط الحضارة الغربية، وسيطرة حضارات الإسلام على العالم الجديد ..

إن مفكرى الغرب وعلماءه يقبلون على الإسلام، ويدخلون فيه، ويعتنقون مبادئه وشريعته، لأنه الدين الأمثل، والشريعة السمحة، والعقيدة الإنسانية الشريفة، التى تلائم العقل، وتوائم الفطرة، وتتمشى مع الحياة، وتعمل على نشر السعادة والرفاهية والسلام والإخاء بين بنى البشر كافة ..

لقد كانت حضارة الغرب قبسًا من نور حضارة الإسلام، ثم انحدرت إلى حيث فوضى المال والجنس والترف والاستبداد والطغيان وروح الاستعمار وجنون الإلحاد والكفر بالدين ..

يقول (غوستاف ليوبون): العرب كانوا هم الممتدين للغرب، وأئمة له فى ستة قرون، وعن طريقهم اهتدت أوروبا إلى تراث الإغريق وكشفت عن ماضيها ..

ويقول شاعر الإسلام محمد إقبال: مثلت حضارة الغرب دورها، وقد شاخت وهرمت، أينعت كالفاكهة وحان قطافها، وسوف ينهار العالم الذى حوله مقامرو الغرب إلى حانة من الفساد .. ولقد رأت أوروبا بعينها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية، ولسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد .. وهذا العالم لا يحسن تصميمه إلا من بنى للبشرية البيت الحرام، وورث إبراهيم ومحمدا قيادة العالم.

إن الإنسانية لابد أن تعود إلى الإسلام .. فهو الحل الحتمى لإنقاذ البشرية .. ولإنقاذ الحضارة.. ولإنقاذ الإنسان ..

يا بنى الإنسان ..

يا أبناء حضارة اليوم ..

يا دعاة التقدم والرخاء والسلام ..

عودوا إلى الله رب الأرض والسماء ورب الملكوت الأعلى .. وخالق الحياة والبشر والكون العظيم بكواكبه ونجومه ومجراته وأفلاكه ..

عودوا إلى الروح الأعلى، تعد إليكم السكينة والأمن والحياة والسلام،

الإسلام دعوة إنسانية عالمية

يقول الله عز وجل فى كتابه الحكيم:

"يا ايها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا"

وصدق الله العظيم؛ إن محمدا أمره الله عز وجل بأن يبلغ الناس بأنه رسول الله إليهم جميعًا، فى الشرق أو فى الغرب أو فى الشمال أو فى الجنوب أيًا كانوا وحيثما كانوا.

إنه رسول الله إلى الناس جميعًا، إلى الإنسانية كافة، إلى العالم قاطبة، إلى الدنيا كلها.

إن دعوة الإسلام الإنسانية دعوة لا تخص شعبا من الشعوب، ولا أمة من الأمم، ولا جنسا من الأجناس؛ إنها دعوة الإنسانية جميعها؛ هى دعوة عالمية إنسانية، إنها دعوة الإنسانية جميعها؛ هى دعوة عالمية إنسانية، دعوة البشرية كلها إلى دين الله الواحد الأحد؛ دعوة الأمم والشعوب كافة إلى هدى السماء، ورسالة القرآن، وشريعة التوحيد "وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله" .. الدين كله لله، والإسلام الطريق المستقيم إلى الله .. دين البيّنة، دين القيّمة، دين الحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة، دين السلام والوئام والتعاون والتكافل، دين لا يفرق بين الإنسان والإنسان، ولا بين شعب وشعب، ولا بين جنس وجنس "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"

الإنسان فى الإسلام بدينه وبعمله، بإيمانه وبإخلاصه لله عز وجل، الفضائل هى ناموس السعادة فى الدنيا والآخرة، والرذائل توبق فاعلها فى جحيم الشقاء والعذاب فى الأولى ويوم القيامة؛ لا شىء يعترف به الإسلام إلا الحق، الله حق، والملائكة حق، والنبيون حق، والقرآن حق، ومحمد حق.

والإنسان في الإسلام سيد العالم، وخليفة الله في الأرض، والقائم على العدل والخير والعطاء بين الناس .. بصرف النظر عن جنسه أو لونه لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وحقوق الإنسان في الإسلام مصانة، ويدافع عنها الإسلام دفاعا شريفا كريما حق الإنسان في نفسه وماله وعرضه، حقه في الكرامة الإنسانية مهما كان عمله وحرفته ومستواه الاجتماعي، حق العامل والزارع والصانع، حق المرأة والابن، حق الطفل، وحق الخادم .. كلها حقوق لرعية محمية، يحميها الله ورسوله، كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، حق الحاكم وحق المحكوم، حق الفقير والمريض والمسنّ الشيخ، حقوق يرعاها الله، ويرعاها رسول الله، وتحميها شريعة الإسلام العظيم.

ومواقف عمر معروفة في الدفاع عن حق الرعية، وعن حقوق الفقراء، وعن حقوق الذميين؛ وليس هناك في الإسلام تناقض بين حقوق الإنسان وحقوق المجتمع، ولذلك حرم الإسلام الطغيان والفساد وحرم الحقد والحسد والهمز واللمز، وحرم تناول الناس بالباطل، وحرم نهش الأعراض، وحرم الاعتداء وأكل مال الناس بالباطل وحرم السرقة والزنا والقتل والنهب والخيانة وشهادة الزور، وأوجب الفضائل الإنسانية كلها وجعلها شريعة: الحق والصدق والأمانة والاستقامة، وطهارة اليد واللسان والعرض، وألزم الإنسان بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وصلة الرحم، والبر والخير والعطف على الفقراء والمحرومين واليتامى والمساكين.

وهذّب الإسلام نفس الإنسان، وعلمه الآداب الرفيعة، من توقير العالم والكبير، واحترام الوالدين والبر بهما، والعطف والحنان على الصغير والمريض والفقير .. إلى غير ذلك من آداب الإسلام وفضائله.

وشرع الإسلام شريعة المساواة والعدالة والإخاء والحرية للناس جميعًا، حتى للمخالفين في العقيدة .. وجعل العلاقات الإنسانية السامية بين الناس في موضع التقرير والاحترام حتى مع الاختلاف في الدين.

كما احترم الإسلام العلاقات الإنسانية بين الأمم والشعوب، وجعلها شريعة من شرائعه، السلام والرفاهية حق للناس جميعًا، ولا عدوان فى الأرض وقال فى الكتاب الحكيم: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها"

آداب رفيعة، ومنهج جليل، وغايات نبيلة، هى كلها آداب الإسلام وفضائله والسمو الإنسانى، وتطلع الإنسان والجماعات والأمم إلى المثل العليا، وبُعْد الإنسان عن الدنايا والسفاسف وحقائر الأمور .. كل ذلك من سمات فضائل الإنسان فى الإسلام.

وقد نجح الإسلام فى إقامة الدولة العالمية الواحدة، وفى القضاء على الفقر بالزكاة والصدقة والإحسان ومختلف شرائع الإسلام فى الاقتصاد، حتى جاء زمن كان يبحث الحاكم عن فقير يأخذ الزكاة فلا يجده ..

إنه الإسلام العظيم

إنه دين الله الخالد

الدين الذى جعل شريعة التوحيد ناموسًا عامًا للإنسانية والإنسان كافة؛ الذى جعل الإيمان بالله ورسله وكتبه وبمحمد خاتم المرسلين وبكتاب الله القرآن المبين، فريضة إسلامية فى المقام الأول من فرائض الإسلام وشرائعه .

فارتفع بالإنسان ونفسه إلى السماء، وجعل الإنسان لا يخضع لأحد إلا لله، وحرر الإنسان من العبودية والظلام والأوهام والأغلال والقيود.

دين الله وشريعته وناموسه وحكمته؛ هو سر السعادة للإنسان فى أولاه وأخراه، فى دينه ودنياه.

الإسلام بحق دعوة إنسانية عالمية، وميثاق رفيع عالمى، نزل به كتاب الله المعجز، ليكون دستور الإنسانية، وشريعة العالم، ودين الشعوب،

الإسلام يظل يضئ الدنيا

وقف الإسلام فى العصر الحديث أمام غزو استعمارى مدمر، وامتحان قاس شديد، وامتصاص كامل لمقدرات شعوبه وثروات أممه، وكما ورث الترك العرب فى سيطرتهم على العالم الإسلامى، فقد ورث الاستعمار الغربى الترك والعرب فى السيطرة على الشعوب العربية والإسلامية فى أفريقيا وآسيا.

ووقف الرأى العام الإسلامى فى أنحاء الدنيا، يندد بالاستعمار، ويعلن الثورة عليه فى كل مكان، وكانت الصدمات والمحن التى نزلت بالمسلمين عاملا كبيرا فى يقظتهم، فدبت فيهم روح الحياة، وأخذوا يفكرون ويبحثون عن السر فى تخلف المسلمين، وفى استعمار الغرب لبلادهم.

وكان لابد من قيام حركات إسلامية جديدة تصمد للمستعمر، وتجاهد من أجل طرده من الوطن الإسلامى، وقامت الحركات الدينية الإصلاحية فى الشرق لتجديد الفكر الإسلامى المعاصر، كما قام السنوسى فى ليبيا، والمهدى فى السودان، وعبد القادر الجزائرى فى الجزائر وعبد الكريم الخطابى فى المغرب، والإمام محمد عبد الوهاب فى نجد، ومحمد عبده فى مصر، والكواكبى فى سوريا، والإمام الشوكانى فى اليمن، ومدحت باشا فى تركيا، والشيخ شامل فى القوقاز، ويعقوب بك فى أنحاء العالم الإسلامى، وهى حركات تهدف إلى تحريره من نير الاستعمار وبعث الأمل فى نفوس المسلمين، وتبصيرهم بالدين الذى كان هم المستعمرين الأوروبيين القضاء عليه فى ربوع الأوطان الإسلامية، وأنشأ محمد عبده والأفغانى فى باريس الجمعية العروة الوثقى وصحيفتها، ثم أنشأ محمد عبده وميرزا محمد باقر جمعية التأليف والتغريب فى بيروت للدعوة إلى الإسلام فى جميع العالم وتعريف الغرب بحقائقه، هذه الحركات القومية لها خطرها وأثرها لأنها كانت تستند إلى أصول قوية من الدين والقرآن الكريم، وقد كان الإسلام هو المحرك الأكبر لها وللمسلمين ليناضلوا المستعمرين، ورد محمد عبده على هانوتو مشهور، وردد "كرومر" قوله إن المسلم غير المتخلق بالأخلاق الأوروبية لا يصلح لحكم بلاده وإن

الإسلام ناجح كعقيدة ولكنه فاشل كنظام اجتماعي، ودعا ويلمورو وملينيون وعبد العزيز فهمي إلى اصطناع الحروف اللاتينية حروفا لكتابة اللغة العربية، ودعا فريق آخر إلى العامية وقصيدة حافظ في الرد عليهم مشهورة، وأوجد الاستعمار طبقة من الشباب العربي الذين راعتهم الحضارة الغربية المادية فتنكروا لماضيهم وعروبتهم، وساند هذه الطبقة لتعمل على تغيير التفكير الإسلامي وربطه بالتفكير الأوروبي.

ثم أخذ المستشرقون الأوربيون باسم العلم والفكر يدسون أفكارهم في بحوثهم وكتبهم ويشوهون الإسلام وتاريخه في نظر العالم المتحضر، وكان من ذلك البلاء كل البلاء فإن الأساتذة في الجامعات العربية أخذوا يدعون لهذه الآراء ويذيعونها بحجة أنها آراء علمية خالصة، وفاتهم أن الغرب لا يفرق بين العلم وبين مصلحته في القضاء على الإسلام، وأن أوروبا تقدم الفكرة اليوم لتخدم بها غدا أو بعد غد غرضا سياسيًا أو استعماريًا أو تخدم بها مصالحها الاقتصادية.

ولقد ملأ الأوروبيون أنفسهم بالتعصب ضد الإسلام وعبأوا شعوبهم معنويًا وماديًا لمحاربته والأدهى من ذلك أنهم سرقوا الحضارة الإسلامية ونسبوها لأنفسهم زورا وبهتانا، وإن كانوا قد زادوا عليها أشياء تعد امتدادا لبحوث العلماء المسلمين وأفكارهم، نهب الغرب أفكار المسلمين ودراساتهم وتراثهم الحضاري وسرقوا آثار بلادهم والمخطوطات الثمينة في كل فن وموضوع. وأخذوا منها نتائج تجارب العلماء المسلمين، ثم امتدت أيدي الغرب لتصفية المعامل الإسلامية ولسرقة النفوذ الإسلامي على العالم، وخضع الشرق العربي لنفوذ الاستعمار وحضارته وظنها كل شيء وأخذت أوروبا تتجسس على الحركة والاتجاهات الإسلامية وتخنقها في مهدها، وزادت على ذلك في بعث التاريخ الإسلامي والحضارة العربية، وعمدت إلى تشويههما وساعدت على قيام مذاهب جديدة منحرفة في وسط العالم الإسلامي، وعلى الدعاية للغرب وحضارته وللمذاهب الغربية الهدامة من ماسونية وصهيونية ووجودية وإلحادية وغيرها، وعلى قيام مذاهب إسلامية متخاصمة متعادية وأخذوا فوق ذلك يزيفون الحقائق والمفاهيم الإسلامية ويحرفون كثيرا من أصول ثقافتنا وحضارتنا ويجهلون الشباب الإسلامي بدينهم وبكتابهم العظيم وبلغة القرآن الكريم، وأخذوا يفهموننا أنهم كشفوا أفريقيا، وإن بدء البعث العربي كان يحمله نابليون على

مصر عام ١٧٩٨، أو بوصول الجمعيات التشبيرية الفرنسية والأمريكية إلى الشرق العربى فى نصف القرن التاسع عشر، ويقول الدكتور حسين الهراوى، إننى أعلم أن المستشرقين ينقصهم فى مباحثهم عن الإسلام الروح العلمية، وإن لهم فى الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم، وهى أنهم يفرضون فرضًا، ثم يلتمسون الدليل عليه فإذا وجدوا فى القرآن ما يهدم نظريتهم تجاهلوه. والتمسوا الآيات التى تناسب المعنى المراد، ولا مانع عندهم من بترها إذا اقتضى الحال، أو تحريف معناها حسب الرغبة، فيخرج القارئ من كلامهم وهويتهم الإسلام بالتلفيق.

أن الأفكار الأوروبية البالية للأسف الشديد لا تزال تسيطر على عقلية كثير من شبابنا وهم بتلك الأفكار الهدامة شر على الإسلام وشعوبه.

يقص علينا محمد إقبال شاعر باكستان الروحى قصة صديق له هاشمى أثرت فيه الفلسفة الأوروبية تأثيرًا وزلزلت عقيدته الإسلامية وإن إقبال كتب إليه قصيدة يقول له فيها:

- أنا رجل انحدر كما تعرف من أسرة عريقة فى البرهمية وأنت من نسل هاشمى، ولكن فلسفة أوروبا اثرت فيك وملأت بفسادها كل جوانحك، فعد إلى الإسلام والقرآن لتهتدى إلى الطريق القويم .. ويقول فى بيت أخر له:

- إن إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحق وكل ما عداه فى هذا العالم المادى وهم طلسم ومجاز.

والمسلم كما يقول إقبال كذلك: مصدر الانقلاب الصالح فى التاريخ، ومطلع فجر السعادة فى العالم، إنه رسول الحياة، ومؤذن الفجر فى الليل البهيم ليشرق على العالم، ويستيقظ الكون وقوة المؤمن الخارقة للعادة، المعجزة للبشر، مستمدة من رسالته وإيمانه، وباندماجه فى إرادة الله، يتحول إلى قوة خارقة قوة قاهرة لا تصدها الجبال ولا تقف فى سبيلها البحار، وإذا كان جسم المسلم من تراب فإن فطرته من نور، وهو يتخلق بأخلاق مولاه، بأخلاق القرآن، كما كان رسول الله ﷺ خلقه القرآن.

هكذا أضاء الإسلام الدنيا كلها اثنى عشر قرنا من الزمان، وأشرقت حضارته على العالم بأسره، وسيظل يضىء الآفاق ويشرق على الدنيا، ما بقيت الحياة،

العقيدة والمنهج فى الإسلام

عقيدة التوحيد والعبودية لله رب العالمين.

ومنهج يعلن عن خصائص الإسلام الكبرى فى الحرية والمساواة والإخاء بين البشر أجمعين.

عقيدة متسامية، ومنهج متكامل، يحمل كل خصائص التقدم والحضارة والبناء من أجل رفاهية البشر والبشرية.

فى العقيدة إيمان كامل بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر.

والمنهج تأتى فى مقدمته أركان الإسلام الكبرى .. الشهادة والصلاة والصيام الزكاة والحج.

فالصلاة إعلان بعبودية الإنسان للخالق المهيمن الأعظم.

والزكاة إعلان بالمساواة الكاملة بين الغنى والفقير، والإنسان مع أخيه الإنسان، مع إطلاق الحرية للاقتصاد فى دائرة هذه المساواة يعمل عمله فى تقدم الحضارة والإنسانية.

والحج إعلان بالإخاء بين أتباع الرسالة كافة، لا فرق بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر. ولا بين جنس وجنس وشعب وشعب. الجميع عباد الله، وأكرمهم عند الله أتقاهم.

أما الصيام فإعلان بالحرية .. حرية الإرادة وحرية العقل وحرية الفكر وحرية الإنسان وحرية المجتمع الإسلامى.

فحرية الإرادة تطلق الإرادة الإنسانية من إسار الشهوات واللذات والمتعة.

وحرية العقل فى إطلاق الطاقات العقلية النائمة المكدودة فى معركة الحياة اليومية، لتؤدى رسالتها الكبرى فى البناء والتجديد والتقدم.

وحرية الفكر في تحرير الأنماط العادية للإنسان من أسار التقليد والاتباع والعادة.

وحرية الإنسان في جعله يتمتع بكل مقومات الحياة الروحية الصافية السامية دون شعور بأنه عبد لشيء مادى من أشياء الحياة المادية المتكررة المشاهدة.

وحرية المجتمع في إطلاقه من قيود "اليومية" الصارمة التي تفرضها الحياة على الإنسان، ويفرضها الإنسان على الحياة، حد من الاستهلاك، وتفرغ للإنتاج حرب على الترف وعلى أصحابه وعلى طلاب المتعة واللذة، وعلى الذين لا يعملون إلا للجنس ولا يفكرون إلا فيه. المجتمع وحدة هو الأساس الذى يجب أن تذوب في مصلحته العليا كل الرغبات والأهواء واللذات.

هذا هو الصيام كجزء من المنهج في الإسلام، وتجيء بقية أجزاء المنهج: اقتصاد حر طاهر شريف، تحمل خصائصه التعاونية الكاملة .. أسرة متكاملة متحابة مترابطة متعاونة على تحمل أعباء الحياة. آداب وقيم للسلوك الأسمى وللإنسان الصالح لخلافة الله في الأرض، ولعمارة الأرض وتذليل صعوبات الحياة أمام الناس. إيمان بالعلم المستمد من الإيمان بالله الذى لا إله إلا هو الخالد المهيمن العزيز القادر الأعلى العالم بما كان وبما سيكون والمستمد من الإيمان بالحقيقة الواحدة الثابتة في كل زمان والشاملة لكل مكان. وغير ذلك من أجزاء المنهج الذى يحمل طابع الاستقلال والشخصية والتميز والجدة.

إن الإسلام عقيدة متكاملة، وحضارة متجددة، نابعة من منهج سليم مترابط، إنه ليس ذا صلة بأى مذهب من المذاهب المعاصرة لا تستطيع أن تقيسه بالرأسمالية ولا الشيوعية ولا الديمقراطية ولا الديكتاتورية، ولا غير ذلك من المذاهب، ولا تستطيع كذلك أن تزنه بأى مذهب منها.

إنه مذهب كامل صالح لكل زمان ومكان، وهو شريعة الله المثلى الوسطى الخاتمة للشرائع وللرسالة السماوية، وهو دين بقى كتابه المنزل من السماء خالدا محفوظا في الصدور والصحف منذ نزل هذا الكتاب من السماء إلى اليوم.

ولا يستطيع مسلم أن يقول أنه مسلم إلا إذا عمل بهذه الأصول كلها والتزم بها التزاما تاما دون حيدة عنها، أو خروج عليها، وفى حدود الأصول: العقيدة والمنهج، ليس له أن يخرج عن هذا الإطار السماوى ليأتى بإطار آخر يضعه بنفسه ثم يفرضه عليها، ثم يدعى أنه مسلم.

لقد قضى الله عز وجل، وشرع لنا العقيدة والمنهج، فليس لنا خيار فيهما، والله عز وجل يقول فى كتابه الحكيم فى سورة الأحزاب. "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا".

والسعادة كل السعادة فى أن نعود إلى العقيدة والمنهج نلتزمهما التزاما كاملا، ونؤمن بهما إيمانا تاما، ونعتقد عن يقين وصدق أنهما وسيلتنا إلى السعادة فى الدنيا وفى الآخرة، وأنهما هما اللذان يصلان بنا إلى كل خير فى الدنيا وفى الآخرة، وفى النفس والأهل والمجتمع والأمة، وفى الحياة، وفيما بعد الحياة.

نعم، سبحان الله وتعالى، نزل الشرائع، وختمها بالرسالة الكاملة، رسالة الإسلام، رسالة محمد بن عبد الله، التى قامت عليها حضارة استظل العالم بظلالها طويلا، فنعم بالأمن والأمان والطمأنينة والرخاء والتقدم.

وبحسبها أنها لا تفرق بين جنس وجنس، ولا نحيز بين لون ولون، وتقيم العدالة التامة بين المسلم وأتباع جميع الديانات السماوية المنزلة، تحترم الحق وتدعو إلى أداء الواجب، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتفرض طاعة الله على كل إنسان على أن أروع ما فى ديننا العظيم هو عظمة جوانبه الإنسانية عامة: تشريعاته أصوله، مبادئه قيمه الرفيعة.

لقد اهتم بالإنسان من حيث هو إنسان برعاية حقوقه والحفاظ على كرامته، والارتفاع بمعنوياته وإشعاره بالعزة والكرامة والطهارة، وارتفاعه به إلى مستوى العبودية لله والشموخ والصمود والرجولة الحقة، والحفاظ على نفسه وعرضه وما له، وتوفير الحرية له، وأشعاره بالمسئولية .. غرس كل بذور الخير فى نفسه؛ ومن أجل ذلك أوجب على الآباء طهارة العرض والنفس والمال ليكون الابن عزيزا كريما نبيل الخلق والنفس والروح، وما أروع قوله عز وجل: "ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات" (٧٠ الإسراء) فى إشارة رفيعة إلى أن الله عز وجل هيأ للإنسان كل الأسباب المادية للارتفاع بكرامته وبإنسانيته.

ويبدو اهتمام الإسلام كبيرا بالفقير والمريض والطفل والمرأة والعامل بل والخادم والأسير والمحبوس، بل والحيوان أيضًا.

ولتعزيز الجانب الإنسانى فى الإسلام كانت أعمال البر المشروعة فى الإسلام من صدقات وزكوات وإحسان وكرم وجود، وفى الحديث الشريف "كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة؛ ولتعزيز هذا الجانب الإنسانى فى

الإسلام أيضًا كان رمضان، وكانت شريعة الصيام وكانت الزكاة، وصدقة الفطر، والدعوة إلى زيادة البر والإحسان فيه، وكان كذلك العيد إشعارًا بحب المسلم للبر، وإقباله على عمل الخيرات وسعيه إلى كل أريحية ومكرمة ومحمدة؛ وجوع الصائم فى رمضان هو فى أساسه حرص على إشعاره بألم الجوع، ليتضاعف فى قلبه الإحساس بآلام الفقراء والمعوزين والبائسين والزكاة هى فى أصلها دعوة كريمة مفروضة وواجبه إلى الخير، وإلى رفع الضر عن المحتاجين وقد تكرر الأمر بها فى كتاب الله الحكيم أكثر من خمسين مرة، والذين صاموا وقاموا فى رمضان كل ذلك للارتفاع بمعنويات المسلم ليصبح أهلا لتلقى أوامر الله عز وجل بالقبول، وفى مقدمة هذه الأوامر كفالة اليتيم والعطف على المسكين ودفع حاجة الفقير ومشاركة البائسين والمرضى والمنكوبين والمهمومين آلامهم ومشاعرهم ..

والشريعة الإسلامية أعدل الشرائع وأحكمها، فأساسها رعاية المصالح ودرء المفاسد، وغايتها إسعاد الناس فى الدنيا والآخرة، وهى بحر زاخر يحوى كل أسباب القوة والرخاء للأمم والشعوب، وهى الأساس المكين لبناء الحضارة، وفيها من الأصول المرنة، والقواعد الشاملة، ما يجعلها مسايرة لمصحلة الناس فى كل زمان ومكان.

ففى التشريع الإسلامى الوفاء كل الوفاء بحاجات المجتمعات الكبيرة والصغيرة، وبمطالب الدول فى مختلف الأجيال، لأن هذا التشريع هو تشريع منزل من أحكم الحاكمين، ورب العالمين، لخير الناس، ولمصلحة ورخاء الشعوب؛ والمسلمون يملكون بهذا التشريع أعظم المصادر لمقومات الأمم الكفيلة ببناء عزتها ووحدتها وتقدمها.

يقرر جاك استروى فى كتابه "الإسلام أمام التطور الاقتصادى":

إن الإسلام يتمتع بإمكانيات هائلة، وإذا ما وجد الطريق الصحيح مفتوحًا أمامه فإن كثيرًا من الصعوبات الاقتصادية سوف يحلها وحده، كما يرى أن الإسلام وحده أقدر على ذلك من غيره من المذاهب الاقتصادية العالمية الأخرى.

ويقول ليفي أدلمان: "يجب اعتبار الشريعة الإسلامية في المعاملات مصدرا حيا للقانون المصري، ومناطا للحق في أدواره المختلفة".

وقد عقد العالم الأمريكي هوكنج أستاذ الفلسفة في جامعة هارفرد فصلا مستفيضًا عن مصير الثقافة الإسلامية، في كتابه "روح السياسة العالمية" المطبوع عام ١٩٣٢، حيث تكلم فيه بإسهاب عن أصول الفقه الإسلامي، وعن المذاهب الأربعة، وقال: "إن الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة، وإصدار أحكام مستقلة، تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية، وفي نظام الإسلام كل استعداد داخلي للنمو، بل أنه من حيث قابليته للتطور، يفضل كثيرا من النظم المماثلة، والصعوبة لم تكن في وسائل النمو والنهضة في الشرع الإسلامي، وإنما في انعدام الميل نحو استخدامها، وإني أشعر بأني على حق حينما أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة جميع المبادئ اللازمة للنهوض".

ثم قال: "إن سبل تقدم الشعوب الإسلامية ليس في اتخاذ الأساليب الغربية التي تدعي أن الدين ليس له أن يقول شيئا عن حياة الفرد اليومية، وإنما يجب أن يجد المرء في الدين مصدرا للنمو والتقدم، وأحيانًا يتساءل البعض عما إذا كان نظام الإسلام قادرا على الصمود أمام مشكلات العصر، وأقول: أنه لا يعدل الإسلام في ذلك مذهب من المذاهب".

وصلة الإسلام بشريعة التكافل الاجتماعي وبنظريات المساواة والإخاء والعدالة والمذهب الاقتصادي الحر غير الموجه، وبالإبداع الإنساني الخلّاق الساعي نحو البناء والرخاء والتجديد، صلة معروفة ووثيقة .. يقول المستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس (٦نوفمبر ١٨٨٤ — ٦نوفمبر ١٩٧٩): "كان الذائع أن فكرة المساواة والإخاء والديمقراطية والحرية من ابتكار أوروبا في القرن السابع عشر: بينما هي حقيقة من حقائق الإسلام وأصوله منذ نشأ".

ويقول جوته الألماني في "الديوان الشرقي للشاعر الغربي":

يجب أن ينظر إلى القرآن على أنه كتاب سماوي وشرح إلهي، وتعليم علوي وليس كتابا إنسانيا للدراسة والمتعة".

الشريعة الإسلامية هى شريعة السماء والسلام، وقانون الحرية والتقدم والمساواة والإخاء والعدالة، وهو المنقذ لنا، وبخاصة بعد أن اضطربت الحياة الاجتماعية فى العالم بعد ظهور أوجه النقص والفساد فى القوانين الوضعية، التى استبان فشلها فى توفير السعادة والطمأنينة والأمن للناس.

فحاجتنا إلى الشريعة الإسلامية وتطبيقها حاجة حضارية، وعلينا أن نفتح أبواب الاجتهاد لتعزيز نهضتنا المعاصرة بهذه الثروة التشريعية الإسلامية التى أهملناها طويلا، والتى لا تزال فى مصادر الفقه الإسلامى حافلة بكل جديد توصل إليه الفقهاء الإسلاميون المجتهدون من قواعد التشريع وأصوله العادلة التى حكموا بها على الحوادث والمسائل الفرعية، مما يفى بمتطلبات وحاجات الأفراد والمجتمعات والدول، فى مسيرتها الصحيحة التى تحتفظ بالأصالة؛ وهى تحقق التقدم والتجدد مع العصر ولا تتناقض مع العلم بحال؛ إن الإسلام يجعل العزة لله ورسوله وللمؤمنين برسالته، بالقرآن الكريم، بكل النبيين والمرسلين، بالفضائل والقيم الإنسانية الرفيعة.

الإسلام شريعة حق وعدل، وخير وبر، ورحمة ومودة، وتكافل وتعاون وتضامن بين الناس.

وصدق الله العظيم فيما يقول فى كتابه العزيز: "إن الدين عند الله الإسلام" (١٩ آل عمران)، ويقول عزل وجل: "ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين" (٨٥ آل عمران)، ويقول تعالى: "أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون" (٨٣ آل عمران) .. وصدق الله العظيم،

الفكر الإسلامى فكر حضارى

الفكر الإسلامى ينطلق من القرآن الكريم رسالة السماء الخالدة المنزلة على خاتم المرسلين، وسيد النبيين، محمد ﷺ.

ويتمثل هذا الفكر فى عقيدة التوحيد الكبرى وفى الإيمان بمبادئ الإسلام فى الكرامة الإنسانية وحفظ حقوق الإنسان ورعايتها، والإيمان بالفضائل الإنسانية كلها، ومحاربة كل وسائل الشر والفساد فى الأرض.

كما يتمثل فى عبادة الله عز وجل وطاعته وفى الإيثار والرحمة والمحبة والعدل والمساواة والإخاء والتكافل والتضامن الإسلامى الوثيق الغر.

يجب أن يحب الإنسان لغيره ما يحب لنفسه وأن يعامل الناس جميعا بالرحمة والمحبة وأن يسير بالعدل والإنصاف فى كل شىء وفى كل أمر من أمور الحياة، وأن يعطى قبل أن يأخذ، ويبنى دون أن يهدم، ويُقَدِّمَ ولا يُؤخِّر ويساعد الفقير والمحروم واليتيم والمسكين، ويؤدى لله حقه، وللعباد حقوقهم.

والفكر الإسلامى يتمثل فى طلب المعرفة من كل مكان، وفى التأمل والتفكير؛ وترك التقليد والمحاذاة والمتابعة دون تدبر؛ وفى الاعتداد بالفضائل والآداب الكريمة، وفى تمثل القيم الرفيعة فى السلوك والمعاملات، وكل جوانب الحياة.

والفكر الإسلامى من أجل ذلك كله فكر حضارى يؤمن بالعلم، ويحل العلماء مكانا رفيعا فى المجتمع؛ ويبنى على ثمرات أفكارهم وعقولهم تراث الإنسانية الخالد فى شتى جوانب المعرفة والحياة.

والفكر الإسلامى يسخر العلم لخدمة الإنسان والحضارة والسلام، لم يخترع العلماء المسلمون سلاحا يضر بالإنسان أو بصحته أو بنسله أو بطعامه وغذائه، وحرم العلماء والمسلمون ابتكار شىء يضر بالإنسان، أيا كان هذا الإنسان.

لم يفكر الإنسان المسلم فـي ابتكـار جراثيـم تقتـل الإنسـان أو الـزرع أو الحيوان.

لم يضع فى حسابه الهدم بل البناء ولم يقم على سياسة التفريق بل التجميع والتوحد لم يبن سعادة إنسان على أشلاء بؤس إنسان آخر.

الفكر الإسلامى يرحب بالسلام، وينظر شذرًا إلى الحرب، التى لا يشرّعها إلا للدفاع عن الدين أو الوطن.

الفكر الإسلامى يقوم على الحرية وترك التقليد وضرورة اكتشاف نواميس الله فى الكون، والعمل من أجل الرخاء والسعادة والتقدم البشرى.

لقد حرم بعض العلماء حرق الورق المكتوب لأن ما فيه من كتابة ينمّى العلم والمعرفة فى الإنسان.

وحرم البعض أن ندوس بالأقدام الصحائف المكتوبة، لأن ما فيها من المعرفة قد يثرى ثقافة الإنسان.

إن الإسلام يؤمن بالبناء، ويعمل من أجله ويقيم صروح الحياة الفاضلة على شرع الله وطاعته، وعلى أساس قوى من العلم والمعرفة، ولذلك جعل العمل فريضة، وجعله عبادة وطاعة لله؛ ما دام هذا العمل شريفا ومن أجل الأغراض الشريفة.

ولذلك كله كان الفكر الإسلامى فكرا حضاريًا بنّاء، يحب السلام، ويؤمن بالعدل وبالعمل؛ ويعمل من أجل التقدم والرخاء والازدهار والحضارة والحفاظ على كرامة الإنسان وحقوقه فى الحياة،

الإسلام وحوارُ الحضاراتِ

الإسلام دين الله الذى بشَّر به رسول الإسلام محمد بن عبد الله - صلوات الله عليه - هدى للناس ورحمة ودعوة إلى كل القيم الإنسانية الرفيعة التى يجب على الإنسان أن يحافظ عليها ويلتزم بها، ويتخذها دستورا له فى الحياة.

وناموس الإسلام أو قانونه، أو دعوته، ذلك مفصل فى كتاب الله الحكيم، الذى نزل به الروح الأمين، على نبىّ الله ومصطفاه ورسوله إلى خلقه، وإلى العالمين كافة، محمد - ﷺ -.

رسالة شريفة واضحة سامية، يقول محمد فريد وجدى[1]: الإسلام أن تسلم وجهك لله، مجردًا نفسك عن علمك وعقلك وحولك وقوتك وتقاليدك كلها، الخشوع دثارك، والتقوى والرجاء والضراعة صفاتك، متجردًا له كيوم ولدتك أمك على الفطرة، لتتحقق عبوديتك" ومن قبل قال عمر بن الخطاب لبعض أصحابه: لقد أعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزة من غيره يذلكم الله ومن بعدقال مستشرق غربى هو "ولز": الإسلام هو الدين الحق الذى يساير المدنية" والهرمز الفارسى قد عرف الحقيقة، فقال لرسول عمر بن الخطاب: إنما غلبتمونا بالإسلام.

إن التوحيد هو الدعامة الكبرى لشريعة الإسلام، وهو الزاد الذى يستمد منه المسلم كل قوته، يقول الله - عز وجل - فى محكم آياته:

"ذلكم الله ربُّكم لا إله إلاّ هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيلٌ"[2].

ويقول - عز وجل -:

---

[1] الإسلام فى عصر العلم ٢: ٣٥٦.

[2] الأنعام (١٠٢).

"يأيُّها الناس قد جاءكم الرّسول بالحق من ربّكم فأمنوا خيرًا لكم وإن تكفروا فإنّ لله ما فى السّموات والأرض وكان الله عليمًا حكيمًا"[1].

ويقول تولستوى[2]: خلاصة الإسلام كما نادى به محمد هو أن الله واحد لا إله إلا هو، وأن الله رحيم عادل، وأن مصير الإنسان النهائى متوقف على الإنسان نفسه، فإذا سار حسب شريعة الله، وأتم أوامره واجتنب نواهيه فإنه فى الحياة الأخرى يؤجر أجرا حسنا، وإذا خالف شريعة الله وسار على هواه فإنه يعاقب فى الحياة الأخرى عقابا شديدا.

فى عام ١٩٣٨ عقد فى لاهاى مؤتمر "القانون المقارن" وفيه قد قرر المجتمعون اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرا مهما من مصادر التشريع بعد أن أشاد الأعضاء الأجانب على اختلاف مللهم بأحكام الشريعة الإسلامية.

وفى عام ١٩٥١ عقدت شعبة الحقوق من المجمع الدولى للقانون المقارن مؤتمرا للبحث فى الفقه الإسلامى فى كلية الحقوق بجامعة باريس تحت اسم "أسبوع الفقه الإسلامى" ودعت إليه عددا من المستشرقين وأساتذة القانون فى الدول الغربية والشرقية، وقد حاضر الأعضاء فى موضوعات محددة حددها مكتب المجمع الدولى للقانون المقارن وهى: إثبات الملكية - المسئولية الجنائية - الاستملاك للمصلحة العامة - تأثير المذاهب الاجتهادية بعضها فى بعض - نظرية الربا فى الإسلام. وفى خلال المناقشات قال النقيب السابق للمحامين فى باريس: أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامى وعدم صلاحيته كأساس للتشريع يفى بحاجات المجتمع العصرى المتطور وبين ما نسمعه الآن فى المؤتمر مما يثبت خلاف ذلك تماما ببراهين النصوص والمبادئ .. وفى ختام الأسبوع قرر المؤتمر أن الفقه الإسلامى يقوم على مبادئ ذات قيمة أكيدة لا مرية فى نفعها وأن اختلاف المبادئ فى هذا المجال التشريعى الضخم ينطوى على ثروة

---

[1] النساء (١٧٠).

[2] حكم النبى محمد لتولستوى ص٨.

من الآراء الفقهية وعلى مجموعة من الأصول الفقهية التى تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونته لجميع مطالب الحياة الحديثة. كما قرر المؤتمر أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الإسلامى المؤتمر يساعد على تسهيل الرجوع إلى مؤلفات هذا الفقه فى موسوعة فقهية تعرض فيها المعلومات القانونية الإسلامية وفقًا للأساليب الحديثة.

وفى بحوث عديدة بين الباحثون أن الفقهاء المسلمين شرّعوا المحاكم الدستورية العليا، واختصاصات هذا النوع من القضاء كما فصلها أبو الحسن الماوردى هى:

١- النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على أجهزة الحكم فى الدولة.

٢- النظر فى تظلم موظفى الدولة ضد تطبيقات القانون.

٣- تقرير الأحكام التى يعجز القضاء العادى عن إصدارها.

٤- ما يختص بتقرير حقوق الإنسان.

وقد يملكنا الذهول عندما نعرف أن عمر ابن الخطاب وقف يومًا يودع أحد ولاته قبل سفره إلى الإقليم الذى سيحكمه، وألقى عليه هذا السؤال: ماذا تفعل إذا جاءك سارق أو ناهب: وكان رد الوالى: أقطع يده. فاستدرك عمر الحديث معه قائلاً: وإذن فإن جاءنى منهم جائع أو عاطل فسوف يقطع عمر يدك. إن الله قد استخلفنا على عباده لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم ونوفر لهم حرفتهم. فإذا أعطيناهم هذه النعم تقاضيناهم شكرها، يا هذا إن الله قد خلق الأيدى لتعمل، فإذا لم تجد فى الطاعة عملا التمست فى المعصية أعمالا، فأشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

وعندما ألف "روسو" كتابه "العقد الاجتماعى" وقرر فيه أن الأمة هى مصدر السلطات وهى سيده الحاكم الذى يستمد منها قوته وسلطته، لعله كان يعرف أن الإسلام قرر هذه المبادئ تقريرا وطبقها تطبيقًا، وهذا هو عمر بن الخطاب يقول: إن من استرعاه الله على المسلمين فقد وجب عليه ما يجب على العبد لسيده، ومن حديث رسول الله – ﷺ – "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" - رواه البخارى

ومسلم - أليس هذا المفكر الغربى على صواب وعلى هدى من الإسلام حينما تقرؤه يقول: ولز: الدين الحق الذى يساير المدنية هو الإسلام؟

-٢-

أوروبا تخاف الإسلام، وتخاف من الإسلام، ليس ذلك على مستوى الحكومات فحسب، بل على مستوى الأفراد والجماعات، وحرب الأقليات الإسلامية فى الغرب مستمرة اليوم ومن قبل وستستمر من بعد أيضًا. ولقد وقفت الإمبراطورية الرومانية فى وجه الإسلام منذ معركة اليرموك حتى فتح القسطنطينية على يدى السلطان محمد الفاتح فى أواسط القرن التاسع الهجرى تشن عليه الحرب وتدبر له المؤامرات، وتؤلب عليه القوى المختلفة، وما حديث الحروب الصليبية بسر .. وكانت بيزنطة إحدى القوى المحركة للأحداث فى غزو التتار للعالم الإسلامى وفى تدميرهم لبغداد وقضائهم على الخلافة العباسية. وحسبنا دليلا على ذلك ما يرويه التاريخ من أن هيتون ملك أرمينية المسيحى كان العامل الرئيسى فى إقناع الملك المغولى "مانجوخان" (٦٤٦ - ٦٥٥هـ/ ١٢٤٨ - ١٢٥٧م) بإرسال حملة هولاكو المشئومة بل إن هولاكو نفسه زوج ابنه من ابنة امبراطور القسطنطينية المسيحى[1].

ومذابح الصرب فى الهرسك وفى كوسوفا أثر لهذا الشعور الغربى المستحكم بالعداء للإسلام وللمسلمين.

على أن فى الغرب منصفين يدعون ولا يزالون يدعون إلى الحوار بين الشرق والغرب، الحوار بين الحضارات، من أبرز هؤلاء الدعاة ولى عهد بريطانيا الأمير تشارلز والإسلام منذ عصر الرسالة حتى اليوم لا يعرف طريقا إلى الحضارات والأديان الأخرى غير طريق الحوار والمجادلة بالحسنى، والله - عز وجل - يقول فى كتابه الحكيم:

---

[1] ٢٥٢ و٢٦٠ الدعوة إلى الإسلام لتوماس ترجمة حسن حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين - وراجع: كتاب المسيحية والإسلام وكتاب مغول إيران، وهما لعلى مصطفى بدر.

"ولا تجادلوا أهل الكتب إلاّ بالّتى هى أحسن إلاّ الّذين ظلموا منهم وقولوا ءامنًا بالّذى أنزِلَ إلينا وأنزِلَ إليكم وإلهنا وإلهكم واحدٌ ونحن له مسلمون"[1].

-٣-

إن الأصوات المنصفة فى الغرب، مع قلتها: تنفر من حرب الحضارات ومن كل ذلك نفورا شديدا.

فتشارلز ولى عهد بريطانيا ينادى بضرورة الحوار بين الحضارات، لا الصراع بينها.

ووزير الخارجية البريطانية السير روبين كوك ينادى فى كلمته التى ألقاها منذ نحو عامين فى أحد المراكز الثقافية الشرقية بلندن: بأن الثقافة الغربية مدينة للإسلام وحضارته، وبأن الغرب فى حاجة إلى الإسلام كصديق لأنه دين السماحة والحب والوئام، وبأن من الظلم أن نلصق الإرهاب بالإسلام لأنه دين السلام (صحيفة الأهرام - صفحة الفكر الدينى - ١٦/١٠/١٩٩٨) .. قال روبين كوك: إن جذور ثقافتنا الإنجليزية ليست يونانية أو رومانية الأصل فحسب، بل هى إسلامية أيضًا فالفن الإسلامى والعلوم والفلسفة الإسلامية قد ساعدت على تشكيل تطورنا، والأرقام الإسلامية ما زالت يعتمد عليها. إن ثقافة الغرب مدينة للإسلام .. والبعض يقول: إن الغرب بحاجة إلى عدو بعد انتهاء الحرب الباردة وأن الإسلام هو العدو الجديد، كما يقولون: إن صراع الحضارات قادم ولا مفرٌ منه، وأنا أقول: إنهم مخطئون خطأ فادحا، فنحن لسنا بحاجة إلى الإسلام كعدو، بل نحن فى حاجة إليه كصديق، قد تكون حضاراتنا أو أدياننا مختلفة، ولكن هذا لا يعنى أننا لا نستطيع أن نتعايش معا، إن علينا أن نتعاون معا لإفشال هذه الإدعاءات، فالقرآن الكريم يدعو فى سورة الحجرات (الآية ١٢) إلى التعارف بين الشعوب. إن القائل بأن ثقافتنا غير متجانسة مخطىء، فهناك قدر كبير من المعارف يمكن أن نتعلمه من بعضنا، والغرب مدين للإسلام بالشىء الكثير، فالإسلام وضع الأسس الفكرية لمجالات عديدة وكبيرة فى

---

[1] العنكبوت (٤٦).

الحضارة الغربية. ومن أكبر الأخطاء التى يمكن للغرب أن يرتكبها هو الظن بأن الثقافة الإسلامية شيء غريب عنا فهي ليست كذلك فإن ثقافتنا قد تشابكتا عبر التاريخ والأجيال. وما زالتا تتلاقيان أيضًا في وقتنا الحاضر، إنى أقترح إجراء حوار جدى حول القضايا العديدة التى تهم الجانبين.

(انتهى حديث وزير الخارجية البريطانى).

وأمامى كذلك كتاب "بين شتى الجبهات" للمفكر الألمانى عبد الهادى هوفمان الذى عمل فى الحقل السياسى الألمانى فترة طويلة، وعند بلوغه سن الواحدة والأربعين اعتنق الإسلام (أى عام ١٩٨٩ لأنه من مواليد ١٩٤٨)، ويجاهد فى إزالة الواهم العدائى بين المسلمين والألمان .. وهو غير مراد هوفمان السفير الألمانى السابق فى المغرب ومؤلف كتاب "الإسلام كبديل". وهما يلتقيان فى الإيمان بالإسلام كدين صحيح وشامل لكل مناحى الحياة، وقد أصبحت أوروبا فى أمس الحاجة إليه.

إن الكتاب "بين شتى الجبهات" بصفحاته الـ ٢٥٠ حافل بالتنويه بدعوة الإسلام إلى حرية العلم وحرية الفكر وحرية العبادة، وإلى الشورى، ويقول: إن صورة الإسلام فى الغرب صورة عدو لدود، وهو وضع مقلوب للحقيقة، وإن الإيمان بإله واحد يجمع بين المسلمين والنصارى، كما يؤكد عظمة الحضارة الإسلامية وقيامها على أساس المسئولية الفردية، والوحدة والتعاون والإخاء وحقوق الإنسان.

-٤-

هل نسى الغرب أن الإسلام وحضارة الإسلام وعلماء الإسلام هم الذين أحيوا التراث اليونانى القديم وقدموه محققًا ومشروحًا إلى أوروبا؟.

وهل نسى الغرب أن الإسلام هو الذى حمى اليهودية واليهود فى العالم من بطش وجبروت العصور الوسطى فى أوروبا؟.

وهل نسى الغرب أن الإسلام هو الذى حمى المسيحية، وحمى مصر المسيحية من جبروت الدولة البيزنطية وطغيانها؟.

وهل نسي الغرب أن الإسلام دعوة سلام إلى العالم وإلى الدنيا جميعًا، ودعوة أخوة وتعاون دولي لمصلحة الشعوب.

وكيف يعادي الغرب المدجج بكل أنواع التدمير النووي وغيره، الشرق الإسلامي الذي جعل السلام شعاره في كل شيء وفي كل وقت، بل في كل عبادة، بل في كل عمل، وتحيته دائمًا هي: السلام عليكم إن الإسلام لم يصنع ما صنعته الصرب في البوسنة والهرسك ولم يصنع ما صنعته روسيا والصين في بلاد الإسلام وفي مسلمي بلادهما.

إن الإسلام والغرب، يجب أن يلتقيا، وبلا ريب فهما ولا يب يمكن أن يلتقيا لو حافظ الغرب على روح الأخوة البشرية، وعلى حق كل منهما في أن يعيش في سلام وتعاون مع الآخر، وعلى أن الخروج على الشرائع السماوية باسم الحضارة والحرية خطأ لا يغتفر وشرك ما بعده من شرك.

والسلام على من اتبع الهدى.

فى ظلال الحضارة الإسلامية

فى ظلال الحضارة الإسلامية تألف الفكر الإنسانى وشمل العالم كله موجة من الرخاء والتقدم والبناء والتعمير.

والحضارة الإسلامية فى رأيى تبدأ من الهجرة النبوية الشريفة؛ فمنذ دخل رسول الله ﷺ، المدينة مهاجرا، من مكة إلى المدينة ولحق به جِلّة صحابة رسول الله صلوات الله عليه، بدأت مسيرة حضارة الإسلام، خطوة خطوة، إلى أن تألق نورهما فى آفاق الدنيا كلها.

وأعتبر بناء المسجد النبوى الشريف فى المدينة بعد الهجرة مباشرة أول تاريخ لحضارة الإسلام، وأول خطوة فى مواكب الحضارة الإسلامية، كما أعتبر المسجد النبوى الشريف أول جامعة إسلامية حقيقية تقوم فى الإسلام، والمسجد النبوى كان الإمام الأكبر له هو صاحب الرسالة المحمدية العظمى، وكان مساعدوه هم صُفوة المسلمين من صحابة رسول الله من المهاجرين والأنصار. وكان مجلس رسول الله (ص) فيه وحوله الصحابة المكرمون هو أول الحلقات العلمية فيه وفى تاريخ الإسلام عامة ومن يؤمئذ بدأت مسيرة الحضارة الإسلامية أما المسجد الحرام فمنذ فتح مكة تحول إلى جامعة إسلامية ثانية تصدّرها جلة صحابة رسول الله، وفى مقدمتهم عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ؛ فليس صحيحا ما يقال من أن جامع القرويين فى فاس يُعدّ أقدم جامعة إسلامية؛ أو أن جامع عقبة فى القيروان، أو جامع الأزهر فى القاهرة يعد هو الأقدم؛ فليست العبرة أوّلاً بقيام المسجد وإنشائه، بل بتحول حلقات العلم فيه إلى حلقات جامعية، وليس أحد من هذه الجوامع الكبرى هو أقدم جامعة إسلامية لأن المسجد النبوى الشريف هو الأسبق والأقدم ويليه المسجد الحرام فى مكة المكرمة بعد الفتح عام ثمانية من الهجرة، وهكذا.

أن الحضارة الإسلامية أضاء نورها منذ بناء المسجد النبوى، وأخذت فى التألق والازدهار بعد ذلك، يوما بيوم، وعاد بعد عام.

فرأيناها تزدهر فى مكة والمدينة والبصرة. والكوفة ودمشق والقاهرة والقيروان وفاس وقرطبة وشتى مدن الإسلام، ورأيناها تضىء أنوارها منبعثة من جامعات الإسلام الكبرى فى كل مكان، ويستظل بظلها العالم كله، والإنسانية كافة.

العالم اليوم يضج بالإلحاد والعلمانية والعقلانية، ويرفض الانتماء إلى الدين والدخول فى ظلاله الوارفة .. لماذا؟ إنها نزعة القرون الماضية فى أوروبا .. أما اليوم، أما القرن الخامس عشر الهجرى فسيكون هو قرن الإسلام، قرن المسلمين، قرن دخول العالم فى عقيدة الإسلام بإذن الله.

إذ لابد من قائد جديد يقود البشرية وسط أعاصير الهوج، والعواصف المردية، إلى مواطىء الأمن والسلام، وإلى القيم والمثاليات الرفيعة، التى فقد عالمنا اليوم الإيمان بها.

ولن يكون هذا القائد إلا الإسلام، ولن تنجح قيادة أخرى إلا إذا كانت نابعة من فلسفته ومبادئه وقيمه العالية الحكيمة.

ونقول ذلك لا عن تعصب ولا غرورا ووهما ولا سوفسطائية وحلما وآمالا كذابا.

إنما هو الحق والصدق، هو الحقيقة وحدها، وماعدا ذلك فهو كذب وزور، وأضاليل وأوهام .. إن الواقع والتاريخ يؤيدان ذلك تأييداً مطلقًا، ويدلان دلالة صادقة على أن الإسلام وحده هو الدين القادر على قيادة الإنسانية وإسعادها ورفاهيتها وعلى السير بها إلى آفاق جديدة، يقول إقبال: إن الحضارة الغربية قد مثلت دورها، ونثرت كنانتها، وقد شاخت وهرمت، أينعت كالفاكهة وحان قطافها، وإن العالم الذى حوّله مقامرو الغرب إلى حانة للفساد سوف ينهار قريبا، ولقد رأت أوروبا بعينها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية، ولكن واأسفاه، ولسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد، وهذا العالم الجديد لا يحسن تصميمه إلا من بنى للبشرية البيت الحرام. وورث إبراهيم ومحمدا - صلى الله تعالى عليهما وسلم - قيادة العالم.

فللإسلام من تاريخه الحضارى العظيم، وله من ماضيه الخالد في قيادة العالم وتوجيهه، وله من مبادئه وقيمه ومثله وفلسفته له من كل ذلك براهين قوية لا تقبل الشك فيها، على أنه هو القائد والرائد المنتظر للعالم، وعلى أنه لن يصلح غيره في تهذيب الحياة وتوجيهها، وفي بناء الحضارة ودعم صروحها.

ولأبدا بتاريخ الإسلام الحضارى، ثم أعرض لماضيه في قيادة العالم، ثم أرجع لمثالية الإسلام وفلسفته.

تاريخ الإسلام الحضارى

إن تاريخ الإسلام الحضارى لا يمكن أن يكون محل شك من أحد، إنه واضح وضوح الشمس في ريعان النهار، إنه حق كما أن الإسلام الذى قام عليه حق.

ولقد بهر تاريخ الإسلام الحضارى العلماء والباحثين والمفكرين في أوروبا، وأخذوا - على الرغم من تعصبهم الدينى، ومحاولتهم تزييف الحقائق والتاريخ - يمجدون حضارة المسلمين وينوهون بها، ويثنون عليها، ويعلون من منزلتها بين الحضارات، إلى حد يثير الإعجاب، ويدعو إلى الفخر، ويبعث على الكبرياء.

لقد صاح "بترارك" الشاعر الإيطالى في القرن الرابع عشر الميلادى (١٣٣٤ - ١٣٧٤م)، حين رأى تفوق العرب في الميدان الحضارى والثقافى، وعجز أوروبا عن اللحاق بهم في هذا المضمار قائلا: "يا عجبا!! لقد استطاع شبشرون أن يكون خطيبا بعد ديموستين، واستطاع فيرجيل (١٩ ق.م) أن يكون شاعرا بعد هوميروس، فهل قدر علينا ألا نؤلف بعد العرب؟ لقد تساوينا نحن والإغريق وجميع الشعوب غالبا، وسبقناها أحيانا، إلا العرب فبالعبقرية إيطاليا النائمة الخامدة.

ووقف فيكتور هوجو الشاعر الفرنسى الكبير في القرن التاسع عشر الميلادى أمام حضارة العرب في الأندلس، ممثلة في قصر الحمراء مبهورا مأخوذا، ويدخل القصر، فتمتلئ، نفسه بروعته، وجلاله وينشد قائلا: "أيتها الحمراء أيتها الحمراء أيها القصر الذى زينتك الملائكة كما شاء الخيال وجعلتك آية الانسجام أيتها القلعة ذات الشرف المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان، والمائلة الانهزام، حيثما تنعكس أشعة الشمس الفضية على جدرك من خلال قناتك العربية، يسمع لك في الليل صوت

بسملة الألباب، وهذا القصر الذى ملأت روعته نفس الشاعر الفرنسى الكبير، لم يشاهد "هوجو" على الطبيعة، إنما شاهد وجدره المزخرفة، ونقوشه النادرة، قد غطيت بطبقة سميكة من الكلس، بعد خروج العرب من الأندلس، وذلك بأيدى الأسبان الملوثة بدماء العرب وحضارة الإسلام فى بلادهم، يقول غوستاف لوبون:

"كل ما فى قصر الحمراء عجيب وإن المرء ليملكه العجب من جدرانه المزينة بالنقوش العربية الأنيقة، وقبابه ذات الزخارف الساحرة المتدلية، المطلية فيما مضى باللازورد والأرجوان والابريز، ولقد قص جميع رجال الفن، الذين زاروا قصر الحمراء العجيب، والألم ملء قلوبهم، مالا يكاد العقل يصدقه، من أنباء التخريب الفظيع، الذى أحدثه الأسبان فيه، حتى لقد عدته جميع الحكومات الأسبانية مجموعة من الخرائب القديمة، التى لا تنفع لغير الاستفادة من موادها، فبيعت ألواح الميناء التى أتت تزين ردهات الحمراء لصنع الملاط، باب مسجدها البرونزى كنحاس أنيق، وحرقت منها أبواب ردهة وسراج الخشبية الأنيقة كما يحرق الحطب، ثم اتخذ من ردهاتها الجميلة للمجرمين، ومخازن للميرة، بعد ما أمكن نزعه منها، وأراد الأسبان عبر جدران الحمراء المزينة بالنقوش العربية الجميلة، فكسوها بطبقات من الكلس، وقيل للأسبان غير مرة: إنهم يملكون بهذا القصر إحدى عجائب الدنيا التى تجلب إليهم المسلمين من كل مكان، فأزيل شىء من الكلس الذى سترت تلك النقوش العربية .. هذا هو ما قاله أوربى فرنسى عن أثر واحد من آثار الإسلام فى الأندلس، ويستمر فى عجبه، فيقول: وأين غرناطة اليوم القذرة من غرناطة الأمس المتحضرة؟

عندما وقف محمد إقبال فى مسجد قرطبة العظيم عام ١٩٣١، صلى فيه لأول مرة فى التاريخ بعد جلاء المسلمين، وذرف على تربته دموعا غزارا، وتذكر العرب المسلمين الذين حكموا هذه الأرض ثمانية قرون، واستنشق فى جوه وهوائه أريج حضارتهم، وشعر كأن هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين وكأن جو قرطبة يشكو إليه إقفاره من الأذان الإسلامى، وظمأه إليه، فنظم فى ذلك قصيدة من أبدع قصائده ..

ويقول غوستاف لوبون فى كتابه "حضارة العرب" مبهورا بعظمة الحضارة الإسلامية، وبماضى العرب الحضارى: الحق أن أتباع محمد ظلوا أشد من عرفتهم أوروبا من الأعداء إرهابا عدة قرون، وعندما كانوا لا يرعبوننا بأسلحتهم، كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم العربية السامقة، ونحن لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس.

ويقول مسيو ليبرى: لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا عدة قرون.

لقد كان العرب إذا ما استولوا على مدينة، صرفوا جهدهم إلى إنشاء مسجد، وإقامة مدرسة فيها، وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة، ومنها المدارس العشرون التى روى بنيامين التطليلى (٧٣١م) أنه شاهدها فى الإسكندرية، وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة على جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية، وعلى كل ما يساعد على البحث العلمى.

ويصف المؤرخ العربى الكبير أبو الفداء فى تاريخه عظمة الخلافة العباسية وحضارتها، التى بهر منها سفراء قيصر الروم عام ٣٠٥هـ، حين أقام الخليفة المقتدر بالله لهم حفل استقبال فى قصره ببغداد، يقول أبو الفداء: قدم رسل ملك الروم إلى بغداد، فلما استحضروا عبئت لهم العساكر وصفت الدار بالأسلحة وأنواع الزينة، وكان العسكر المصفوفون حينئذ مائة ألف وستين ألفا، ما بين راكب وواقف، ووقف الغلمان ذوو الزينة الباهرة والمناطق المحلاة، ووقف الخدام بذلك، وكانوا سبعة آلاف، أربعة آلاف خادم أبيض، وثلاثة آلاف خادم أسود، ووقف الحجاب كذلك وهم حينئذ سبعمائة حاجب، وألقيت المراكب والزوارق فى دجلة بأعظم زينة، وزينت دار الخلافة، فكانت الستور المعلقة، عليها ثمانية وثلاثين ألف ستر، منها إثنا عشر ألفا وخمسمائة ستر من الديباج المذهب، وكانت البسط اثنين وعشرين ألفا، وكان هناك مائة سبع مع مائة سباع، وكان من جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة، وشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه، وأحضروا بين يدى المقتدر وصار الوزير يبلغ كلامهم إلى الخليفة، ويرد الجواب عن الخليفة.

ولقد سيطرت الحضارة العربية منذ اثنى عشر قرنا على الأقطار الممتدة من شواطئ المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهندي، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى رمال إفريقيا الداخلية، وكان سكان هذه البلدان المترامية الأطراف تابعين لدولة واحدة، ويدينون بديانة واحدة، ولهم لغة واحدة ونظم واحدة وفنون واحدة، وكان تأثير لغة واحدة عظيمًا في الغرب، وهو في الشرق أشد وأقوى، فلم يتفق لأمة ما اتفق للعرب من النفوذ، وإنه لفرق كبير بين بناء الدولة وبين تاسيس حضارة، ولقد أنشأ العرب بسرعة حضارة جديدة لهم، فأبدعوا من فورهم حضارة أفضل من جميع الحضارات التي كانت قبلها.

وإذا قرأنا ما كتبه الغربيون عن "تاج محل" الأثر الإسلامي العظيم في الهند (١٠٤١هـ ١٦٣١م) راعنا وصفهم له، يقول باحث أوربي: إن كل ما يمكن أن يجود به الفن من الكمال صبه في "تاج محل" الساحر الذي بناه شاهجهان ليكون ضريحًا لزوجه، ويعد من عجائب الدنيا، وهو من المباني الإسلامية النادرة التي أفلتت من أيدي التخريب الإنجليزية المنظمة، وكان الحاكم الإنجليزي لورد بنتنك قد اقترح هدمه وأن تنزع منه فضته، وتباع قطعه في الأسواق، ولقد هدم الإنجليز أثرًا رائعًا من آثار الحضارة الإسلامية في الهند، هو "قصر المغول" في دهلي ويسمى "قلعة شاهجهان"، الذي شيده شاهجهان المسلم عام ١٠٥٨هـ ١٦٤٨م، وكان من أجمل القصور الإسلامية في بلاد الهند وفارس، فهدموا جميع أجزائه، وأقاموا في مكانها ثكنات، ولم يبقوا منه إلا على بعض الردهات التي ضنوا على زخارفها وحلاها بالتجديد عند تحويلها إلى اصطبلات ومراقد للجنود، فطلوها بالجبس، مما أثار سخط العالم بسبب مثل هذا العمل الهمجي، الذي تحمر منه وجوه وحوش البرابرة خجلاً، وعظمة الآثار الإسلامية في دهلي معروفة، حتى لكأن سحرة "ألف ليلة" لا تستطيع أن تبدع ما هو أروع منها .. وحين استولى المغول على بغداد عام ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م خربوها تمامًا، وقضوا على آثار الحضارة العربية فيها، ونهبوا كل ما فيها من الأموال بأمر هولاكو التترى ودمروا كل ما وصل إلى أيديهم، وألقوا في نهر دجلة بجميع ما وصلت إليه أيديهم من مخطوطات نفيسة كانت ثروة علمية وحضارية

فريدة فى مكتبات بغداد العامة وتألف من هذه الكتب الملقاة فى دجلة جسر كان يمكن للناس أن يعبروا عليه رجالا وركبانا، وأصبح ماء دجلة أسود من مدادها، ولكن أولئك الوحوش الضارية عادوا فخضعوا لسلطان حضارة المغلوبين، ففى المدرسة العربية تمدن المغول، واعتنقوا الإسلام وحضارته، وأقاموا بعد ذلك فى الهند دولة عربية قوية.

وقد أذاع بعض الأوروبيين أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية القديمة بأمر عمر بن الخطاب، ولكن المحققين من الباحثين من عرب ومستشرقين وفى مقدمتهم بتلر نفوا ذلك نفيا قاطعا، وكذلك نفى هذه الخرافة جيبون وغوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب، وتاريخ العرب الفكرى والثقافى والحضارى ينفى عنهم ذلك، فقد كانوا منذ نشأ الإسلام حماة للثقافة ورسلا للعلم وروادا للمعرفة، والمشجعين على البحث العلمى فى كل مكان حلوا فيه، والصحيح أن جزءا من هذه المكتبة أحرقه يوليوس قيصر، على أنه ليس مستبعدا أن تكون روما هى التى اغتصبت من هذه المكتبة ثمن كتبها، كما أنه من الصعب أن يقول إن المكتبة لم تصب بأذى فى عهد الرومان مما كان ضربة قاضية على مكتبة الإسكندرية ففى عام ٣٩١م أصدر الإمبراطور الرومانى أمرًا بالقضاء على عبادة الأوثان فى الإسكندرية، ومن العسير أن نصدق أنه كان بالإسكندرية مكتبة كبيرة بعد أواخر القرن الرابع الميلادى.

ولقد بلغ المسلمون قمة مجدهم الحضارى فى ظلال الرشيد وابنه المأمون فى بغداد والناصر وابنه الحكم فى قرطبة، والمعز وابنه العزيز الفاطمى فى القاهرة، وآثار المسلمين الحضارية فى الهند وفارس والعراق ودمشق، وفى كل مكان نزلوه، لا تزال على الرغم من قدم العهد بها، وعدم العناية، بتجديدها، ملء السمع والبصر .. ولفلاسفة الإسلام من مثل الكندى (٢٥٣هـ) والفارابى (٣٣٩هـ)، وابن سينا (٤٢٨هـ)، وابن رشد (٥٩٥هـ) وابن طفيل (٥٨١هـ) وغيرهم، لهم مكانتهم الرفيعة فى الفكر الإنسانى، واشتهر من العلماء المسلمين: ابن الهيثم (٣٥٥ - ٤٣٠هـ) الذى يصفه البيهقى بالحكيم ويعده (بطليموس الثانى)، ويصفه مستشرق بأنه أعظم الرياضيين والطبيعيين فى العصور الوسطى، ويقول عنه مصطفى نظيف العالم المصرى، إنه أنشأ

علم الضوء الحديث كما هو الآن ويعده "رضا مدور" في مرتبة اينشتين .. ومن العلماء - كذلك: جابر بن حيان والرازى وغيرهم، وقد نقل كتاب جابر بن حيان (الاستتمام) الذى هو من أهم كتبه إلى اللغة الفرنسية عام ١٦٧٢، فدل هذا على نفوذه العلمي في أوروبا مدة طويلة.

ولقد سبق العرب بيكون إلى التجربة، وكانوا حائزين لهذا المنهج التجريبى المجدى، الذى استعان به علماء القرون الحديثة بعمزمن طويل للوصول إلى أروع الكشوف، وهو المنهج العلمى الحديث السائد الآن في جامعات أوروبا، وكان الغزالى وابن رشد وابن حزم أساتذة لبيكون في هذا المضمار .،، ويقول "بريفليف" العلامة في كتابه "البحث العلمى" أن محاولة إسناد الطريقة التجريبية لغير العرب ليست إلا تصحيفا في فهم المصدر الحقيقى للحضارة الأوروبية، ولا يوجد جانب واحد في الحضارة الأوروبية دون أن تكون ثقافة المسلمين واضحة فيه، وقد وصل العرب عن طريق منهجهم العلمى التجريبى إلى كشوف مهمة، وأنجزوا فى ثلاثة قرون من الاكتشافات ما يزيد كثيرا على ما حققه الإغريق وغيرهم فى أطول بكثير من ذلك الزمن. ومنح اعتماد العرب على التجربة مؤلفاتهم دقة وإبداعا، ووصلوا إلى اختراع البارود، والمدفع وإلى أشياء كثيرة في كل علم وفن.

وكان تأثير العرب وحضارتهم في الغرب عظيما جليلا حتى ليقول غوستاف لوبون: إن أوربة مدينة للعرب بحضارتها، وقد ظلت كتب العرب المترجمة إلى اللغات الأوروبية، ولاسيما الكتب العلمية مصدرا وحيدا تقريبا للتدريس فى جامعات أوروبا خمسة أو ستة قرون، ويمكننا أن نقول: إن تأثير العرب فى بعض العلوم - كعلم الطب مثلا - دام إلى أيامنا، فقد شرحت كتب ابن سينا في مونبيليه في أواخر القرن التاسع عشر، وكان ابن رشد الحجة البالغة للفلسفة في الجامعات الأوروبية من أوائل القرن الثالث عشر الميلادى: ولما حاول لويس الحادى عشر تنظيم أمور التعليم فى فرنسا عام ١١٧٣م أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف العربى المسلم، ولم يكن نفوذ العرب فى جامعات إيطاليا بأقل منه في فرنسا، فقد كان للعرب فيها شأن كالذى كان للإغريق واللاتين بعد عصر النهضة، واقتبس الغرب أصول فن عمارته من العرب

واستخدم الفرنسيون مهندسين معماريين من العرب في إنشاء كنيسة نوتردام الباريسية، وهكذا كان المسلمون أساتذة للغرب في الفنون والآداب وفي الفلسفة والرياضيات والفلك والطب والفيزياء والميكانيكا وفي العلوم الطبيعية والصناعية، وفي الأخلاق، بل لم يتخلص النصارى من همجيتهم إلا بفضل اتصالهم بالعرب واقتباسهم منهم مبادئ فروسيتهم وما تؤدى إليه هذه المبادئ من التزامات كما يقولون، فالعرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والفلسفية والأدبية، فكانوا ممدنين للغرب وأئمة له في ستة قرون .. وعن طريق العرب في إسبانيا وصقلية وجنوبي إيطاليا اهتدى الغرب إلى تراث الإغريق، واكتشف ماضيه فأخذ ينقب عنه ..

وقد كان ملوك النورمان في صقلية، بعد أن أسقطوا الحكم الإسلامي فيها، يحترمون العرب في هذه الجزيرة، ويبسطون عليهم حمايتهم، ويمنعون عنهم الاضطهاد بسبب إمامة العرب في الفنون والعلوم والصناعات، حتى كان الرهبان في الجزيرة يعجبون بحذق العرب، ويعزون اكتشافاتهم إلى السحر.

ولما زار الشاعر إقبال جزيرة صقلية سكب دموعه على أطلالها العربية، وقال قصيدة افتتحها ببيت يقول فيه: "ابك أيها الرجل دما، لا دمعا" فهذا هو مدفن الحضارة العربية" وزار الإمام محمد عبده أيضًا الجزيرة، وشاهد حضارة العرب فيها، ووصف مقبرة مسيني المشهورة فيها.

تراث الإسلام الحضارى

نعم، إنَّ ماضى العالم الإسلامى فى الفكر العالمى وفى الحضارة الإنسانية معروف لا يخفى على أحد، ولم يعد يستطيع أن يجحده إنسان..

فجامعات الشرق الإسلامى ومدارسه وعلماؤه ومفكروه وأدباؤه وشعراؤه، كل ذلك أصبح تراثًا خالدًا عزيزًا جليلاً فى تاريخ التقدم والمدنية، وفى تاريخ الإنسان والإنسانية، وكان من الممكن أن يذهب التراث الإغريقى فى الفلسفة والعلوم بددا، لولا أن العلماء المسلمين نقبوا عنه، وحفظوا ذخائره، وترجموا كنوزه إلى اللغة العربية، وأحاطوه بهالة من النور والإكبار، وجاءت أوروبا بعدهم بقرون، لتأخذ هذا التراث عنهم، ولتعرف ما أسداه أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم للفكر من آثار خالدة، ثم أخذت تبحث عن مؤلفاتهم فى خزائن الكتب فى العالم الإسلامى وتنقلها إلى مدنها ومتاحفها ودور كتبها، وحين كانت أوروبا تحارب العالم الإسلامى فى الحروب الصليبية أو فى الغارات المنظمة التى كانت تشنها على بلاد المسلمين حول الثغور الإسلامية فى سهول آسيا الصغرى، أو فى الجزر المنتشرة فى حوض البحر الأبيض المتوسط، أو فى المدن الإسلامية فى الشواطئ الشمالية الأفريقية، أو فى جبال الأندلس وسهولها، وكذلك حين كانت أوروبا ترسل السفراء والتجار إلى كل مكان فى بلاد المسلمين - كانت تطيل التحديق والتفكير فى هذه النهضة الباهرة العجيبة التى تظل العالم الإسلامى، وترنو إلى أضواء الجامعات الإسلامية بإعجاب وانبهار شديدين، وتفكر فى كل ما وصل إليه العالم الإسلامى من تقدم ونهضة ورخاء، ثم توازن بينه وبين ما هى فيه من تأخر وانحطاط وتخلف شديد عن ركب الحياة.

وحين كان شارلمان ومن معه يحاولون أن يعرفوا كيف يكتبون ويقرأون كان أمثال سهل بن هارون والجاحظ وعلماء بيت الحكمة فى بغداد، يملأون الدنيا

ضجيجا بفكرهم وآرائهم، ثم كان الخوارزمي والرازي والفارابي بعد ذلك بقليل يبحثون في شئون الفكر والحياة وفي فلسفة أرسطو وأفلاطون.

أليس ذلك كله وغيره مما لا يتسع المجال للحديث عنه من نهضة العلوم والفنون والآداب في العالم الإسلامي - منذ نهايات القرن الأول الهجري إلى فتح القسطنطينية وإلى سقوط الأندلس - في مجال الحضارة والمعرفة والفكر؟

أما تاريخ المسلمين السياسي في هذه الفترة، بل وفيما بعدها حتى أوائل القرن التاسع عشر، فمعروف وهو حافل بالانتصارات الباهرة التي لم يستطع شعب ولا مجموعة من الشعوب أن يحققوها في مدى قليل، كمثل هذا المدى الذي حقق فيه المسلمون معجزاتهم في السياسة والحرب وفي النظم التشريعية والقضائية والإدارية للدولة الإسلامية، على الرغم من الأحداث الكبيرة، التي نزلت بالعالم الإسلامي والشعوب المسلمة.

كل ذلك يعطينا الصورة الواضحة لروح العالم الإسلامي، التي انبثقت من ينابيع دينهم وشريعتهم وكتابهم العظيم.

ثم كانت النهضة الأوروبية، وكان عصر الاستعمار، عصر تخلف المسلمين وغزو بلادهم واستعمارها، ومحاولة أوروبا تجريد الشعوب الإسلامية من كنوزهم وخيرات بلادهم، وعملها الدائب على نقل المسلمين فكريا إلى الإيمان بالغرب وحضارته وإلى ترك تراثهم العظيم وإلى التمسك بكل ما هو وافد من بلاد (الأوروبيين) وتقديره، ونبذ كل ما هو مستمد من روح الشرق العظيم.

وكان ما كان .. ومن أجل ذلك عاد المسلمون يعملون من أجل استعادة حريات بلادهم، واستعادة نهضتها، بأسلوب غربي، وبولاء شديد للسادة المستعمرين سابقا.

ويحاول العالم الإسلامي اليوم أن يعي دروس الماضي البعيد والقريب ولكن تيارات الحياة العالمية المعاصرة تدفعه هنا وهناك، فيتصرف بدون تخطيط للمستقبل، وفي أحيان يدركه الخور فيقف حائرا لا يدري إلى أي اتجاه يسير.

إن نكبة العالم الإسلامي اليوم تتمثل فيما يلي:

أولا: بعده عن روح الإسلام، فليس الإسلام أموالا كثيرة تصرف فى اللهو والمتعة، وليس هو خزائن حديدية تملأ بالذهب، وليس هو احتكارا لمقدرات الشعوب، ولكنه عدالة اجتماعية شاملة وإيمان بالقيم الإنسانية الرفيعة، وعدالة تامة فى كل جانب من جوانب الحياة.

نقرأ فى سورة الرحمن "قوله تعالى: "والسماء رفعها ووضع الميزان" فنمتلئ إيمانًا بعظمة النواميس الإلهية المدبرة للكون، والتى هى الميزان الحقيقى لبقاء العالم وحياته، وضعه الله ليعيش هذا الكون الرحب فى نظام وتناسق وجمال وليبقى فى حياة متجددة ولذلك قال تعالى هنا: "ووضع الميزان".

ومن هنا دعا الله عز وجل إلى أن يحافظ كل إنسان على ظهر الأرض على هذا الميزان، فقال تعالى: "ألا تطغوا فى الميزان"، أى ويدعوكم الله عز وجل إلى أن لا تتجاوزوا الحد فى هذا الميزان الدقيق، ولا تخرجوا عن حدود العدالة والنظام فى كل شىء، وما دام العدل هو ناموس الكون يسيره بنظام دقيق، فليكن هو ناموس الإنسان فى الحياة يسير بهداه إلى الأمن والأمان والسلام والنجاة.

والمسلم اليوم بعيد عن روح الإسلام فى أفكاره ومبادئه وقيمه وسلوكه ومعاملاته. وسلوك المسلم الحقيقى لا يمكن أن يتمشى مع دعوات الفرقة والخلاف والشقاق التى تسود العالم العربى الذى هو جزء من الكيان الإسلامى الأكبر.

بل أن فرقة العالم الإسلامى اليوم تحول بينه وبين كل عمل إيجابى كريم وقوى، وتحول دون القيام بكثير من الإنجازات الحضارية الكبيرة، فالشعوب الإسلامية لم تستطع اليوم إيجاد وحدة سياسية أو ثقافية أو اقتصادية بينها.

والوحدة الثقافية، بين شعوب المجموعة الإسلامية فى العالم، عسيرة للغاية، حتى اليوم، ويمر الوقت سريعًا دون إمكان تلاقى المسلمين على نظام متكامل موحد فى التعليم وفى مختلف الشئون الثقافية.

ولو وعى المسلمون المعاصرون روح الإسلام وعيا جادًا لكان لهم اليوم مكانهم المرموق فى الحياة، ولجمعتهم عقيدتهم على الاتحاد الكامل فى كل جوانب المعيشة، ولاحترمتهم الدنيا بأسرها، ولصاروا أقوى وحدة سياسية فى العالم.

ثانيا: بعد المسلمين عن روح العصر، فهم حتى اليوم لم يستطيعوا توفير (تكنولوجيا) العصر، ولم يدركوا المبادئ التى تسيطر على المجتمعات الدولية التى تهيمن بقوتها على العالم وحضارته، فلم يصلوا إلى القوة المادية ولا إلى القوة الروحية، التى تسير شئون الحضارة العالمية .. وإذا كانت أوروبا فى القرن التاسع غارقة فى الأوهام، يستنكر الأساتذة فى أوكسفورد الاستحمام، ويحسبونه من ملذات العيش الشهوانية التى يجب الترفع عنها، بينما كانت تعيش الأندلس الإسلامية من أجل إثراء المعرفة والحضارة الإنسانية، وتبلغ آدابها وفنونها وجامعاتها الذروة، ويتردد الشباب المسلمون فيها على خزائن كتبها السبع عشرة، ثم يعودون إلى بيوتهم فيتنعمون بالاستحمام فى حمامات بلغت الغاية من النظافة والأناقة، فإن الصورة اليوم أصبحت شبه مقلوبة، نحن نعيش فى ظلال التأخر والكسل ودعوى السيادة المزعومة، وأوروبا تعمل ليل نهار، لتزداد إنتاجًا ورخاء وثراء وقوة.

إننا بعيدون حقًا، وسنظل بعيدين صدقًا، عن روح العصر والحياة - ما دام أسلوبنا هكذا لا يتغير أبدًا.

ثالثًا: توزع العالم الإسلامى بين مختلف الأيديولوجيات وبعده عن أيديولوجيته الخاصة به، والمميزة له، ولقد كانت أيديولوجية المسلم من قبل تدفعه إلى الأصالة والمعاصرة معًا، إلى الرجوع إلى التراث، وإلى كل جديد يهتدى إليه الباحثون بعقولهم، والمؤمن الحقيقى لابد أن يتلقى أصول فكره من الإسلام، وأن يجلس طويلاً إلى مائدة القرآن، وأن يكون يقظًا يعرف مدى الصلة الوثيقة بين الإسلام والعلم، وبينه وبين نظريات الحرية والمساواة والإخاء كما يعرف صلة الإسلام بالمذهب الاقتصادى السليم، وبتحرير الإنسان وإعزاز كرامته، وبإطلاق إرادته وكل قواه الإنسانية الساعية نحو البناء والتجديد، وبغير ذلك من أصول الحضارة والتقدم لأن هذه الصلة واضحة ومقررة ومعروفة.

أيدلوجية الشرق والغرب لا تغنى المسلم شيئا عن نفسه ولا عن فكره، ولا ينتمى الإسلام بحال من الأحوال إلى مذاهب الشرق أو الغرب .. إن التزم المسلم بكل قيم الإسلام الشريفة، من الشعور بالمسئولية، والحرص على أداء الواجب،

والإيمان بالعدالة الكاملة وبالتعاون التام بين جماعات المسلمين وبالمساواة بين جميع أفراد المجتمع فى الحقوق والواجبات، وبالحرية لكل الناس والجماعات وبتوفير العمل وجعله حقًا لكل واحد، وبكفالة الدولة لجميع مرافق الحياة وإيصالها إلى الناس، وبمساعدة الدولة لكل محتاج بقدر ما يسد حاجته، وبالعمل الجاد من أجل نشر الرخاء بين الناس، وبمحاربة كل ألوان الفساد الاجتماعى والرذائل الشيطانية، وبالشورى، وبالسلام الاجتماعى بين جميع الطبقات فى الأمة، وبالتكافل الاجتماعى، وبالقضاء على الامتيازات الفردية والاجتماعية - هذا الالتزام الجاد بكل هذه المبادئ هو التزام بالفكر الإسلامى، وبأصول شريعة الإسلام، وبأيديولوجيته الإنسانية الرفيعة.

وعندما نريد أن تستعيد ثقتنا بأنفسنا، وبمقوماتنا الخاصة المتميزة، وننطلق مرة أخرى، لنعمل من أجل أنفسنا، ومن أجل الحياة، ومن أجل الحضارة الإنسانية، علينا أن نعى أن منطقتنا هى بيئة الحضارات العالمية على مر العصور، ففيها قامت الحضارة المصرية والفارسية، والبيئية والأشورية والبابلية والفينيقية، ثم ورثتها حضارة الإسلام.

أنها منطقة حية حافلة بمختلف ألوان التطور، الذى حققه التقاء الحضارات فيها، وقد ازدهر الإسلام فى نفس هذه المنطقة التى نشأت فيها أصول جميع الحضارات الكبرى .. ومن قبل قيام الحضارة فى ربوع منطقتنا هذه، قامت فيها ثورة العصر الحجرى الحديث، وشاهدت قيام أول حياة زراعية فى تاريخ الإنسان، كما شاهدت تأسيس المدن، وحكم الأسر الملكية الأولى، وتصنيف الأدبيات ..

وإذا كانت المواليد الحضارية فى المنطقة قد انقطعت، فإنها لم تفقد طاقتها الإبداعية، على مرور الأيام، ولقد أسهمت فى ظلال الإسلام إسهامًا فعالا فى إثراء الحضارة والحياة الإنسانية. بل أن هذه المنطقة لم تفقد قيمتها الحضارية لقيام الحضارة الغربية فى بيئة جديدة بعيدة عنها، فما زالت مؤهلة لمخاض جديد ينبعث من ورائه ميلاد أعظم مما يتصوره عقل لحضارة جديدة باهرة. إن منطقتنا لم ولن تخمد فيها روح الإبداع أبدًا، لأنها منطقة التاريخ والفكر والمعرفة، وهى المنطقة

التى شهدت أعظم أحداث التاريخ الكبرى وجميع التحولات الفاصلة فى حياة العالم، ولم تنطفئ جذوتها الحضارية فى يوم من الأيام.

وفى ظلال الإيمان بقدرتنا على بعث حضارة إسلامية جديدة فى رقعتنا العربية أو فى رقعتنا الإسلامية، علينا أن نحارب كل ضعف فى صفوفنا وأن نطهر أنفسنا من كل وهن، وأن نعمل من أجل قيام عصر جديد يحفل بكل إبداعات العقل، المؤمن بكل قيمة ذاتية، وبكل فضيلة إنسانية، ألزمنا بالإيمان بها ديننا العظيم.

على جامعاتنا مسئولية كبرى فى قيادة مواكب العلم والحضارة فى بلادنا وعلى جامعاتنا الإسلامية بصفة خاصة عبء العمل من أجل السمو بأفكار الشباب والجماهير والمجتمعات فى بلادنا لتعود إلى نقائها وصفائها الروحى، وطهارتها الإسلامية الخالصة، وعليها كذلك عبء العمل من أجل نشر القيم الروحية والدعوة إلى السلام والإخوة الإنسانية فى عالم اليوم الملئ بالأحقاد والبغضاء.

الإيمان بالإسلام وبالحياة وبقدرتنا المستمرة على الإبداع فيها، لخير الإنسانية والإنسان والحضارة هى مقومات التقدم والرقى والنهضة.

الإسلام .. والتنمية

التنمية عملية تهدف إلى رفع مستوى معيشة أفراد مجتمع معين على مدى متطاول معتمدة أولا على الإمكانات الذاتية لهذا المجتمع، مع التقدير الواعي لمختلف المؤثرات والعوامل الخارجية، وذلك عن طريق دعم مقدرة المجتمع على القيام بوظائفه الإنتاجية، وتحقيق استثمار أفضل لإمكاناته المحلية.

وهناك خمس مراحل للنمو، حسبما رأى روستو فى تحليل التنمية الاقتصادية .. وهى: المجتمع التقليدى - وفترة التهيؤ - فالانطلاق - والنضوج - ثم الاستهلاك الوفير الشائع ..

وتهتم النظرية الإسلامية فى التنمية الاقتصادية بعامل الدين والسلوك اهتماما كبيرا، وكانت التعاليم الإسلامية فيما يرجع إلى المال والعمل هى التى كونت الانطلاقة الإسلامية فى ميدان التنمية، وللتواصل الحضارى والارتباط بالتراث أثر كبير فى نجاح الانطلاقة الإسلامية..

ولا ريب فى أن التنمية الاقتصادية هى الأساس لنهضة الشعوب الإسلامية ويقول جارودى المفكر الفرنسى الكبير: إننا أمام تراث سام عظيم من القيم الإسلامية التى أسهمت إسهاما كبيرا فى التقدم الإنسانى وذلك من أجل تحقيق العدل الاجتماعى للوصول إلى مجتمع الرخاء والتحرر من الفقر والعوز.

والتصنيع واستخدام نتائج العلم هو أساس حركة التنمية الاقتصادية اللازمة لشعوبنا ولتقدمها، حيث يقودنا إلى الإنتاج الذى يتوقف عليه محاربة البطالة ودوران دولاب العمل، والدخول فى بدايات عصر الاستثمار والرخاء، فالطريق الأمثل للنهضة والتقدم هو التصنيع كما يرى رودان.

وتستهدف التنمية الاقتصادية تخليص المجتمع الفقير من معوقات التخلف الاقتصادى سواء من الجوانب السياسية أم الاجتماعية التى تعترض سبيل التقدم، فهى السبل إلى تحقيق النمو الاقتصادى المنشود.

ومن البدهى أن سياسة التنمية ليست واحدة فى كل بلدان العالم الثالث..

واقتصاديات التنمية عند هيرشمان هى تحليل لمراحل النمو فى البلدان المتخلفة .. بينما أن اقتصاديات النمو عنده هى تحليل لمراحل التقدم الصناعى .. وعند موريس باى "أن حدوث تغير فى الهيكل الاقتصادى أثناء عملية النمو هو تنمية اقتصادية، فإذا لم يحدث هذا التغيير الهيكلى فإن ذلك هو نمو اقتصادى.

تجارب التنمية الاقتصادية فى العالم:

لقد حدثت تجارب كثيرة للتنمية الاقتصادية التى حدثت فى القرنين ١٨ و١٩ والسنوات الأولى من القرن ٢٠.

ولا ريب فى أن الظروف التى تمت خلال هذه التجارب فى فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة، قد كانت نتيجة نمو أقل كثيرا فى مقدمتها التقدم الاجتماعى والسياسي والثقافى وقيام الثورة الصناعية وبدء عصر الآلة، ومساندة الرأسمالية للارتفاع بمعدل الاستثمار إلى أقصى حد ممكن، مع الحرية الاقتصادية، وحياد الدولة وترك الفرص الكاملة لقوى السوق. إلى الثروات الطائلة التى هبطت عليها من المستعمرات الخاضعة لها، وفتح أسواق هذه المستعمرات لإنتاجها. وتملك الدول المتقدمة لأحدث أدوات الإنتاج، وهى غير متاحة للدول المتخلفة التى تستورد مصانعها من الخارج لأسباب سياسية واقتصادية وغيرهما.

النظرية الإسلامية فى التنمية الاقتصادية للمجتمع الإسلامى:

١- رأس المال الخاص يدور فى أيدى العاملين من أجل الاستثمار والربح وخدمة المجتمع.

٢- مزيد من الاهتمام بالتجارة والصناعة والزراعة.

٣- تشجيع الملكية الخاصة فى مجال الزراعة وغيرها.

٤- العناية بالشباب صحيا واجتماعيا ودينيا.

٥- تحريم الاحتكار والغش والربا بجميع ألوانه والجشع فى تقدير الأسعار، والاستغلال بغير عمل - وكنز الأموال.

٦- التكافل الاجتماعى، وعدالة التوزيع.

٧- تقرير الحرية والمساواة والإخاء بين الناس جميعا.

٨- فرض العدالة وتحريم الظلم وأكل أموال الناس بالباطل.

٩- الإنفاق فى سبيل الله، والصدقة والإحسان وإيتاء الزكاة.

١٠- مرتب ثابت لكل فرد فى المجتمع (ضريبة الأرزاق) وخاصة فى حالات البطالة، وتوفير المسكن الملائم.

١١- تشجيع استخراج الثروات من باطن الأرض.

١٢- الاهتمام بالنظافة والتعليم والصحة والخدمات الاجتماعية.

١٣- التصنيع وإقامة المشروعات الخاصة، فليس لغنى أن يبخل بماله ويكنزه ويحول بينه وبين الفقير الأمين القادر على العمل فيه، وعلى الاستثمار والربح، وعلى إفادة نفسه وإفادة الغنى بعائد الربح والاستثمار الشريف.

١٤- الملكية العامة أمانة فى يد كل العاملين فيها، وهى تشمل المواد الأساسية للاستهلاك. أما الملكية الخاصة فقد شجعها الإسلام، وحافظ عليها وجعلها تعمل بإتقان تام مع مصلحة المجتمع الذى تعمل من أجله، وعليها أداء الالتزامات الاجتماعية، والمساهمة فى كل ما يعود على المجتمع بالخير.

الاقتصاد الإسلامى يساهم فى التنمية:

الاقتصاد فى عصرنا الراهن هو المحور الذى تدور حوله حياة الأفراد والشعوب، بل أن المذاهب الفكرية التى تسود هذا العصر إن تميزت شىء فذلك أنها ترتكز على مذاهب اقتصادية ومهما اختلفت فى وسائلها فإنها تتحد فى غاياتها التى هى - أولا وأخيرا - الرفاهية الاقتصادية.

ولقد أثبت النظام الاقتصادى فى الإسلام أنه يتصدر كل النظم الاقتصادية، إنه أعطى الحضارة العالمية كل مقوماتها وأعظم النتائج الاقتصادية السليمة المربحة،

التى وطدت الثقة فى نفوس المتعاملين والجماهير، فهو أكثر النظم فائدة ورخاء وخيرا للمجتمعات والشعوب، يقول جاك اوسترى فى كتابه "الإسلام أمام التطور الاقتصادى" الذى نشر عام ١٩٦١ فى باريس - ص١١٢ -: إن الإسلام يتمتع بإمكانيات هائلة، وإذا ما وجد الطريق الصحيح أمامه مفتوحا فإن كثيرا من الصعوبات الاقتصادية سوف يحلها هو وحده، لأنه أقدر على ذلك من غيره من مذاهب اقتصادية.

والاقتصاد الإسلامى كريم النزعة، نبيل الهدف فى غاياته وجوهره، يقود المجتمع إلى التكافل والخير والإيثار والمسئولية، وتقرير الحقوق والالتزامات.

تجنى الغرب على الإسلام كثيرا، ناسيا فضل الحضارة الإسلامية على العالم والإنسانية وعلى الغرب نفسه، وناسيا أن الإسلام يحترم كل الأديان السماوية المنزلة التى لم تصبها لوثة التحريف، ويعامل هذه الأديان ومعتنقيها معاملة الحب والإخاء والسلام، وأن المسلمين هم الذين أحيوا تراث أوروبا القديم ممثلا فى التراث الإغريقى، وهم الذين أيقظوا أوروبا من سباتها العميق، وجعلوها تلحق بركب الحضارة والتقدم والعلم، وأن شباب أوروبا لم يكن يجد له ملاذا إلا فى الجامعات الإسلامية فى الأندلس وصقلية وفى الشرق العربى نفسه؛ وتناسى الغرب فضل العلماء المسلمين وبحوثهم فى جميع فروع المعرفة، من طب وصيدلة وهندسة وكيمياء وفلك وجيولوجيا، ومن شتى العلوم الإنسانية التى أعادت صياغة الفكر الغربى، ليدرس فلسفة ابن رشد، وطب ابن سينا، وجغرافية الإدريسى، وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية، وليعرف بحوث الخوارزمى وابن الهيثم وابن النفيس وابن زهير، وليدرك فلسفة ابن باجة وابن طفيل، ويقف شعراء التروبادور بفنون ألحان الأناشيد العربية فى الحب والوجد والفروسية.

الغرب أخذ زمام المبادرة

والإسلام كم له من فضل، ومن أياد بيض، على أوروبا وعلى العقل الأوروبى، والذى نسى أنه لولا بحوث العلماء المسلمين لما عرف معنى العلم والمعرفة، ولما وقف على الحقائق التى قادته إلى التقدم وسيادة العالم.

لقد أخذ الغرب – بعد بدايات عصر النهضة – زمام المبادرة من يد الحضارة الإسلامية، ليبدأ سيره فى تيار جديد، وحضارة جديدة، هى حضارة أوروبا، وحضارة البخار والكهرباء والذرة، وأعلن أنه وحده أصبح سيد العالم، وأن الإسلام عدوه الأول وقال بعض زعمائه: نتحالف مع الشيطان ولا نتحالف مع الإسلام .. يا لهول

هذا الفكر الجديد المنحرف الذى ساد أوروبا .. لقد نسى الغرب كل شىء من مفاخر الإسلام وحسناته ولم يذكر سوى أن المسلمين فتحوا القسطنطينية بالسيف وتوغلوا فى شرق أوروبا، وفتحوا الأندلس واستوطنوها، وأخذوا جزر البحر الأبيض ونشروا فيها الإسلام واللغة العربية .. وأن المسلمين لو استعادوا قوتهم لعادوا إلى فتح أوروبا وضمها إلى سيادتهم.

أفكار غريبة لا تصلح لأن تكون فكر إنسان القرن الحادى والعشرين، إن الفتح الإسلامى العربى لمشرق وغرب أوروبا هو الذى عجل بقيام الحضارة الغربية، وتوغل الإسلام فى شرق أوروبا هو الذى أيقظ النوام فى أوروبا الشرقية ليلحقوا بإخوانهم فى أوروبا الغربية، وهو الذى نشر مبادئ حقوق الإنسان، وعجل بقيام الثورة الفرنسية، وحفز إنجلترا لأن تصدر دستورا يحمى حقوق الإنسان.

الفكر الاستشراقى

وإذا كان الفكر الغربى الاستشراقى اليوم يحاول أن يقدم صورة مشوهة للإسلام ولرسوله الكريم، فى كثير من الأحيان، والمواقف، متخليا عن الحياء، وعن النزاهة، فإن المنصفين من المستشرقين، ومن مفكرى الغرب، ومن علمائه أصبحوا اليوم يدركون حق الإدراك معنى الإسلام، وعظمة القرآن، وحقائق سيرة رسول الإسلام وصحابته الكرام.

ها هو ذا جارودى يعلن حتمية الإسلام وضرورته للإنسانية، وها هو ذا هوفمان السفير الألمانى يكتب عن الإسلام كتابات مضيئة، ويكتب هارت كتابه "الخالدون مائة" ويضع فى صدرهم رسول الإسلام، ولا تنسى الكتابات القديمة لكارليل وبرناردشو وجوته وسواهم فى إنصاف الإسلام ونبى الإسلام.

كتاب جديد عن الإسلام فى الفكر الغربى

ومنذ أيام أصدر الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق عميد كلية أصول الدين فى القاهرة، وأستاذ الفلسفة بالجامعة بالأزهر، كتابا جليلا بعنوان "الإسلام فى مرآة الفكر الغربى" فى نحو الخمسين والمائتى صفحة - ضم بحوثا قيمة - حول الفكر الغربى وصورة الإسلام عنده؛ وإذا كان الرأى العام الغربى فى الوقت الراهن

يهتم اهتماما شديدا بقضية الإسلام، أكثر من أى وقت مضى، وبخاصة بعد انهيار الشيوعية الماركسية اللينينية فى روسيا، حتى لقد صار الكثيرون فى الغرب يلجأون إلى مؤلفات علماء الإسلاميات هناك للتعرف على الإسلام وفكره وقضاياه، وعلى الحضارة الإسلامية وعوامل ازدهارها فى أروع حقبة من حقب التاريخ العالمى؛ مع أن هذه المؤلفات ليست مجردة من نزعة التعصب الممقوت، فإن مفكرى الإسلام اليوم يقع عليهم عبء التعريف برسالة الإسلام الروحية والحضارية، وبمبادئه الإنسانية المتسامية السمحة، وبمفاخره التى لا تنتهى وآثاره التى لا تحصى، على الحضارة الغربية.

صورة واضحة لرواد منصفين

ومن هذا المنطلق يصدر كتاب الدكتور الجامعى الجليل محمود زقزوق، ليعطى صورة واضحة لموقف الفكر الغربى، ممثلا فى رواد منصفين، من الإسلام ومنهجه السياسى والاجتماعى والحضارى والاقتصادى بصفة خاصة، وتاريخ أعلامه وآثارهم وما قدموه للحضارة البشرية من جليل الأعمال.

ويتمنى الدكتور المؤلف أن يكون تأسيس "الجمعية العلمية" للبحوث الإسلامية، التى أعلن عن تأسيسها فى شهر يوليو من عام ١٩٩٣ فى برلين بألمانيا، والتى أصبح هو عضوا فيها؛ مقدمة طيبة، واستهلالا جميلا، ومجالا مناسبا للبحث العلمى الموضوعى فى القضايا الإسلامية بهدف الوصول إلى فهم صحيح للإسلام، ولمختلف قضاياه، ولإزالة الكثير من سوء الفهم والأحكام الخاطئة التى كتبت عنه.

ويقول الدكتور المؤلف فى مدخل كتابه: نقدم للقارئ هذا الكتاب الذى نعرض فيه صورة الإسلام فى الفكر الغربى من واقع بعض نماذج من كتابات ثلاثة من المستشرقين الأوربيين.

ويقول عميد المستشرقين الألمان الأستاذ فريتس اشتبات وهو أستاذ الدراسات العربية والإسلامية فى جامعة برلين: إن الأستاذ زقزوق يتحدث عن عجز الغربى عن فهم المسلم، وقد سبق أن أشرت إلى مناقشته للاستشراق وعدم اتفاقه مع المعارف الاستشراقية حول الإسلام.

"مــواقــف"

وفى هـذا الكتاب يتحدث الدكتور المؤلف فى الباب الأول عن مواقف مفكرين غربيين ثلاثة من الإسلام: ففـى الفصل الأول من هـذا الباب يعرض لعقائد الإسلام فى رأى المستشرق الألمانى هرمان اشتيجليكر، موضحـا الجوانب الإيجابية والجوانب السلبية فى هذا الرأى، وأن هـذا المفكر الألمانى قد يكـون أقل تعصبا وأقل تحيزا من غيره، وفى كتابات هذا المستشرق وفى كتابه "عقائد الإسلام" صـورة واضحة لفهمه لمبادئ الإسلام ونظرياته، ومن رأى الدكتـور زقزوق أن المستشـرقين مهما بلغت دقتـهم العلميـة - غرباء عن الأمـة الإسلامية فى دينها وحياتها ومواطـن اعتزازها، وأقول: وفى لغتها أيضا. ويقول الدكتور زقزوق: إن فى أعماق المستشـرقين من رواسب العداوة بين الإسلام والاستعمار - قديمه وحديثه - ما يؤدى بهم إلى الكثير من الشطط والبعد عن مقتضى الحقيقة النزيهة.

"دى بارت المستشرق الألمانى"

وفى الفصل الثانى من الباب نفسه - الأول - يعـرض الدكتـور زقزوق لكتاب المستشرق الألمانى رودى بارت الذى صدر فى ألمانيا الغربيـة عـام ١٩٥٧ باللغـة الألمانية بعنوان "محمد والقرآن - تاريخ النبى العربـى ودعوته" حيث يتحـدث عن المؤلف، وعن منهجه وهدفه فى كتابه، وعن محتويات الكتاب، وعـن الجوانـب السلبية والإيجابية فيه، فالزعم الذى يذهب إليه هذا المستشرق بأن الإسلام أخذ عـن النصرانية صورة الصلاة زعم مرفوض يكذبه الواقع، إذ أن صورة الصلاة فى الإسـلام تختلف اختلافا كبيرا، وجذريا عن صورة الصـلاة فـى النصرانيـة، وإذا كـان هـذا المستشرق يعترف بأن الإسلام دين شقيق للنصرانية واليهودية، وبما لمحمد نبـى الإسلام من شخصية دينية وحقيقية؛ فإن بحثه حـول نشأة الإسلام وما سماه بتطـور عقيدة محمد يدور حول الرواسب العصبية الممقوتة الموروثة عن الأسلاف فـى فـهم الإسلام، ولا يخرج عن هذه الرواسب الخاطئة، وتصور هذا المستشرق لما سماه بقصة تطـور "عقيدة محمد" تصـور يجانبـه الصـواب، ولا يخـرج عمـا يكـرره هـو وبعـض المستشرقين فى خطأ مما يزعمونه من التأثير النصرانى اليهودى فـى محمد، ويجعل

هذا المستشرق لذلك التأثير المزعوم أهمية كبيرة، ويرجع إليه أيضا قدرا عظيما من مضمون الرسالة المحمدية، ويقول الدكتور زقزوق: إن ما يذهب إليه هذا المستشرق حول نبى الإسلام ربما ينطبق على مصلح اجتماعى معتدل، ولكنه لا ينطبق إطلاقا على صاحب رسالة نبوية جاءت لتحدث بأمر الله وإرادته تغييرا جذريا فى مجتمع الإنسانية، ومع ذلك فإن هذا المستشرق يعترف بأن محمد نبى حقيقى.

ويقول: "إن المرء ليتجنى على النبى بإدعاء أنه كان وفيا لرسالته الدينية أثناء إقامته فى مكة فقط وأنه قد أصبح فى المدينة رجل دولة رجل سياسة لا يعترف بغير القوة".

"هونكه مستشرقة ألمانية"

وفى الفصل الثالث من هذا الباب - الأول أيضا - يعرض الدكتور زقزوق لكتاب المستشرقة الألمانية زيجريد هونكة "الله مختلف تماما .." حيث تحدث عن المؤلفة والكتاب، وعن الإنسان فى نظر الإسلام، وعن قوله أن الإسلام انتشر بالسيف، وعن حريق مكتبة الإسكندرية القديمة، كل ذلك من وجهة نظر المؤلفة، وهى مشهورة فى الدوائر العلمية بإنصافها للإسلام، وكتابها الآخر "شمس الله تسطع على الغرب" مشهور نابغ، وفى آرائها فى كتابها "الله مختلف تماما .." ما يتفق كل الاتفاق مع العقيدة الإسلامية.

أما الباب الثانى من هذا الكتاب القيم فهو عن الإسلام والغرب.

وفى الفصل الأول منه يعرض المؤلف للإسلام فى تصور أدباء وفلاسفة الغرب، من أمثال:

- ريموند لول (١٢٣٥ - ١٣١٦م).
- ودانتى (١٢٦٥ - ١٣٢١م) صاحب "الكوميديا الإلهية".
- وبسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢م) الفيلسوف الفرنسى الشهير.
- جون لوك الفيلسوف الإنجليزى (١٦٣٢ - ١٧٠٤م).
- ليسنج الأديب والناقد والكاتب المسرحى الألمانى المشهور (١٧٢٩ - ١٧٨١م).
- فولتير المفكر الفرنسى المعروف (١٦٩٤ - ١٧٧٨م).

- جوتة أعظم أدباء ألمانيا فى القرن ١٨، ١٩ (١٧٤٩ - ١٨٣٢).

- هيجل الفيلسوف الألمانى المشهور (١٧٧٠ - ١٨٣١م) صاحب كتاب "فلسفة التاريخ".

- تولستوى الأديب الروسى الشهير (١٨٢٨ - ١٩١٠م).

كما يعرض المؤلف الدكتور زقزوق بعد ذلك لآراء بعض المؤرخين العالميين الغربيين في الإسلام من أمثال توينبى فى إنجلترا واشبنجلر فى ألمانيا وغيرهم، ومن الأمثلة التى عرض لها آراء أعلام كتبت عن التاريخ العالمى وتاريخ الحضارات؛ ومن بينهم:

- رالف لنتون مؤلف كتاب "شجرة الحضارة" الذى صدر فى نيويورك عام ١٩٥٥.

- ول ديورانت صاحب كتاب "قصة الحضارة".

- موريس كروزيه صاحب كتاب "تاريخ الحضارات العام".

- ويلز مؤلف كتاب "موجز تاريخ العالم"

وفى الفصل الثانى من هذا الباب - الثانى أيضا - يعرض المؤلف الدكتور زقزوق لنظريتين:

أولاهما: الصلات الثقافية فى العالم الإسلامى والغربى.

وثانيتهما: نحو حوار حضارى بين الإسلام والغرب.

أما الباب الثانى من هذا السفر القيم فهو عن الإسلام فى "تصور كاتب أوربى مسلم".

والفصل الأول منه عن "العالم والإنسان".

والفصل الثانى منه عن "الأديان والإنسانية والمجتمع".

ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نطوف آراء هذا الكتاب ودراساته الممتعة، وأفكاره العميقة.

إن المؤلف يسير بالقارئ لكتابه فى واد يشبه وادى عبقر سحرا وجمالا وبهجة ومتعة، ويستولى على فكره ومشاعره بأسلوبه الشيق وبعقله العميق، وبعرضه الممتع، وبآرائه الصائبة، وبحواره الخصب مع كل كتاب، وكل كاتب، وكل رأى؟

كتبه الغربيون عن الإسلام ونبى الإسلام وعن كتاب الإسلام الخالد "القرآن الكريم"، وهو وحى الله الصادق المنزل من السماء برسالة "الإسلام" الخالدة.

وبعد فبحسبى أن أكون قد قدمت صورة مجملة - لهذا الكتاب ولبحوثه، ولآراء المؤلف التى سجلها فيه.

إن للمؤلف الدكتور محمود زقزوق العديد من المؤلفات والبحوث والدراسات فى مجالات الفلسفة الإسلامية والفلسفة العامة والأخلاق وفى الاستشراق ومناهج المستشرقين .. وله العديد من البحوث المنشورة بالألمانية والإنجليزية والتركية والأندونيسية وترجم بعضها إلى الروسية.

ولكن هذا الكتاب الذى عرضنا أهم أبوابه وفصوله وآرائه هو من الأهمية بمكان، وإنا لنرجو أن يقرأه كل مثقف، وكل مسلم، وكل إنسان يعيش فى نهايات القرن العشرين، متطلعا إلى حضارة جديدة، ومسيرة موفقة نحو عالم جديد، يستمد صياغته من فكر الإسلام، وحضارة المسلمين.

رسالة نبوية إلى مصر

-١-

منذ العام السادس للهجرة -٦٢٨م وأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبعث برسائله من المدينة إلى ملوك العالم وأمرائه، بدءا بأمراء الجزيرة العربية، يدعوهم فيها إلى دين الله ويحملهم أمانات المحكومين، ومسئوليتهم أمام الله وأمام شعوبهم .. بعث رسول الله إلى: كسرى وقيصر والنجاشي وحاكم مصر المقوقس من قبل قيصر إمبراطور بيزنطة.

والمقوقس باعتباره حاكما وعظيما والمسئول الأول أمام الله عن الشعب، هو البطريرك الذى عينه الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) حاكما على مصر، ويقيم فى الإسكندرية عاصمة مصر آنذاك فى ظلال الحكم الرومانى؟

وكان له بحكم ذلك السيادة على مصر كلها، كما يذكر بتلر فى كتابه "فتح العرب لمصر" ص٤٤٤.

وتطلق المصادر الأوروبية على المقوقس اسم "كيروس" أو "قيرس" .. ولا نعلم متى ولى المقوقس حكم مصر، ويبدو أن ذلك كان فى أوائل حكم هرقل .. وقد ظل حاكما عليها إلى سقوط الإسكندرية فى أيدى المسلمين عام ٦٤٢.

وكانت مصر فى ظلال الحكم الرومانى، الذى استمر أكثر من ستة قرون تعيش فى ظلال اضطهاد دينى واستبداد سياسى، وفقر وحرمان، وعدها الرومان مزرعة غلال لهم، إلى انحطاط فى التجارة، وفى الزراعة، وتناقص العمران فى البلدان كما يقول مؤلفو كتاب "تاريخ العالم".

وفى هذه الأوقات الأخيرة من انهيار الحضارة البيزنطية، كانت مصر تنصت بانتباه شديد إلى أنباء الجزيرة العربية، وبخاصة المدينة ومكة. وتشهد مشرق عصر الرسالة المحمدية الخالدة، وتتسمع أخبار الصراع الشديد بين رسول الله ومشركى

مكة. وكان اليهود فى المدينة يستفتحون على الأوس والخزرج برسول من الله قبل هجرته ومن قبل بعثته فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا رسالته. وتآمروا مع المشركين عليه .. وأثناء ذلك كان الصراع بين الروم والفرس على حدود الجزيرة العربية عنيفا شديدا، وانتصر الفرس فى بدء هذا الصراع منذ تولى هرقل أمر بيزنطة عام ٦١٠م، حتى عام ٦١٦م انتصارات ساحقة، وفقدوا إمبراطوريتهم على أيدى الفرس، قبل الهجرة بست سنوات، وفرح المشركون فى مكة بالانتصار الفارسى لأنهم وثنيون مثلهم، وحزن المسلمون حزنا شديدا لأن الروم أصحاب كتاب دين، ونزل قوله تعالى: "غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين" (الروم - آية ٢ و٣).

وتحققت المعجزة، وأخذت كفة الميزان تنقلب لصالح الروم رويدا رويدا، حتى هزم لصالح الروم رويدا رويدا، حتى هزم هرقل الملك الفارسى كسرى عام ٦٢٤م فى السنة الثانية للهجرة هزيمة منكرة، واقتحم الروم بلاد فارس. وقبل ذلك انتصر العرب على الفرس فى ذى قار.

وبعد صلح الحديبية (٦٢٨م - ٦للهجرة) أخذت الرسائل النبوية تتوالى على ملوك العالم وأمرائه، دعوة لدين الله، وحرصا على مستقبل الشعوب والحضارة والإنسانية.

-٢-

وها هو ذا المقوقس فى عاصمته الإسكندرية يطرق عليه حاجب الباب، ليخبره أن رسولا من نبى العرب بالباب، يحمل رسالة إليه، فأذن له.

ويدخل حاطب بن أبى بلتعة الصحابى (المتوفى عام ٣٠هـ) فى وفد من المسلمين فى عزة وجلال، وألقوا على المقوقس تحية الإسلام، وقدم حاطب إليه الرسالة النبوية، ونصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى .. أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فعليك إثم كل القبط .. يا أهل الكتاب تعالوا

إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون" .. وختمت الرسالة له بهذا التوقيع الجليل:

محمد رسول الله

ذهل المقوقس مما سمع، وهو ممثل الإمبراطورية الرومانية في مصر، وحوله مائتا ألف من الجنود، وتحيط بعاصمته الأساطيل البحرية الجرارة.. ولكن الأحداث السياسية من حوله دعته إلى مزيد من دهاء السياسي حيال هذه الرسالة، قال المقوقس للرسول:

- أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبيا؟
- ورد حاطب: بلى، هو رسول الله.
- فقال المقوقس: فماله لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلدته؟
- ورد حاطب: فعيسى بن مريم، أتشهد أنه رسول الله؟

قال: نعم.

- قال حاطب: فما له لم يدع على قومه حيث أرادوا صلبه حتى رفعه الله.

- فقال المقوقس: أحسنت أنت، حكيم جاء من عند حكيم، وكتب المقوقس رسالة إلى رسول الله، رد بها عليه ردا حسنا، وبعث مع حاطب فتاة مصرية اسمها مارية تزوجها فيما بعد رسول الله، وأصهر بها إلى شعب مصر، كما بعث معه جارية أخرى وهي أخت لمارية اسمها سيرين، تزوجها فيما بعد حسان بن ثابت شاعر رسول الله: إلى هدايا أخرى .. والجاريتان من "جهن" من أعمال مدينة "أنصنا" الدائرة بصعيد مصر على ضفة النيل الشرقية تجاه "الأشمونين"، وهي مدينة "انطينوه" التي أسسها الإمبراطور الروماني "أوريان" (١١٧ - ١٢٨م)، وقد سماها المصريون "ألصلة". وسماها العرب "أنصنا" .. ومارية هي أم ابن رسول الله إبراهيم بن محمد (ذو الحجة ٨هـ - ٢٤ من شوال عام ١٠هـ).

وحمد المسلمون في المدينة لمصر ولعظيمها المقوقس حرصها على السلام. وعلى الإيمان برسالات السماء.

وكان أثر هذه الرسالة على المشركين شديدا، فرأينا ثقيفا وهى محاصرة فى الطائف بعد فتح مكة وغزوة حنين، تبعث عام ٦٣٠م - ٨هـ بوفد إلى المقوقس، ردا على رسالة رسول الله إليه، واستنصارا به فى حربهم مع رسول الله، ويروى ابن حجر فى كتاب "الإصابة" أن "المغيرة بن شعبة الثقفى" كان على رأس هذا الوفد. وكان المغيرة يتردد على مصر قبل ظهور الإسلام، ويروى الذهبى فى كتابه "تاريخ الإسلام" (٢٤٧/٢) عن المغيرة قال: كنا قوما متمسكين بديننا، ونحن سدنة اللات فأجمع نفر من بنى مالك - من ثقيف - الوفود على المقوقس وإهداء الهدايا له، فعزمت على الخروج معهم، ودخلنا الإسكندرية، فإذا المقوقس فى مجلس على البحر، فركبت زورقا حتى حاذيت مجلسه، فنظر إلى، فأنكرنى، وأمر من يسألنى، فأخبرته بأمرنا وقدومنا، فأمر أن ننزل فى الكنيسة، وأجرى علينا ضيافة، وسر بالهدايا، وأعطانا الجوائز، ودار حوار بين المقوقس وهذا الوفد،، قال لهم المقوقس: كيف خلصتم إلى، ومحمد وأصحابه بينى وبينكم.

قالوا: لصصنا بالبحر

قال: فكيف صنعتم بما دعاكم إليه؟

قالوا: ما تبعه منا رجل واحد.

قال: فكيف صنع قومه؟ يريد قريشا.

قالوا: تبعه أحداثهم، وقد لاقاه من خالفه فى مواطن كثيرة.

قال: وإلى ماذا يدعو؟

قالوا: إلى عبادة الله وحده. وأن نخلع ما كان يعبد آباؤنا، ويدعونا إلى الصلاة والزكاة، ويأمرنا بصلة الرحم، ووفاء العهد وتحريم الزنا والربا والخمر. فرد المقوقس: هذا نبى مرسل إلى الناس كافة.

فقالوا له: لو دخل الناس كلهم معه، ما دخلنا معه.

فقال المقوقس: أنتم وما تحبون، ماذا فعلت يهود يثرب؟

قالوا: هم قوم أولو حسد

وكانت ثقيف تحمل راية الوثنية وتدافع عنها بعد فتح مكة، ومضت أيام هذا الوفد فى الإسكندرية دون أن تحقق ثمرة.

-٣-

ويستمر أثر الرسالة النبوية إلى المقوقس فاعلا فنجد الخليفة أبا بكر يبعث بكعب بن عدى المنوخى ومعه رسالة إلى المقوقس فى الإسكندرية .. ثم يبعث به الخليفة عمر كذلك برسالة إلى المقوقس عام ١٥هـ - ٦٣٨م، فقدم كعب على المقوقس بكتاب عمر بعد نصر اليرموك، فسأله عن معركة اليرموك ونتائجها، كما سأله عن أعلام الصحابة فى المدينة، وأخبره أن العباس عم رسول الله حى، وأنه من أكبر سلالة البيت الهاشمى.

وبعد ثلاث سنوات من هذه الوفادة دخل كعب فى جيش عمرو بن العاص لفتح مصر، ويطرق جيش عمرو فى شوال عام ١٩هـ حصن بابليون، وبعد مفاوضات بين رسل المقوقس ورسل عمرو وفى مقدمتهم كعب، لم تصل إلى نتيجة، سقط الحصن فى الثانى من المحرم عام ٢٠هـ.

ويظهر كعب بن عدى المنوخى هذا فى مفاوضات تسليم الإسكندرية أيضا، وهى المفاوضات التى دارت بين عمرو والمقوقس، والتى وقعها الطرفان فى ١٧ من سبتمبر ٦٤٢م، وبذلك زالت السيادة الرومانية عن مصر بعد ستة قرون (٣١ - ٦٤٢م).
ولله الأمر من قبل ومن بعد.

هل يعود الغرب إلى شريعة الإسلام

الأولى بدل هذا الاستفهام أن نقول: الغرب يعود إلى شريعة الإسلام، أو أن تقول: عودة الغرب إلى شريعة الإسلام ضرورة بشرية وذلك حق لا ريب فيه، وصدق لا يحتمل جدلا.

كان الغرب ينظر إلى الفائدة الربوية على أنها ضرورة اقتصادية، وعلى أن نظام المشاركة فى الربح وهو نظام الاقتصاد الإسلامى انتحار مالى، فجاءت النازية تحرم الفائدة الربوية، وسارت الشيوعية على هذا التحريم فترة من الوقت، مما يدل على أن ما قاله أساطين الغرب فى الاقتصاد من قبل كان مجازفة لا يصح للعقل الإنسانى أن يتورط فيها.

ولا يزال بعض المنصفين من عباقرة الاقتصاد الغربى ينظرون إلى نظام الاقتصاد الإسلامى نظرتهم إلى معجزة اقتصادية صالحة للتطبيق فى أى وقت ولإحداث معجزة اقتصادية على النطاق العالمى فى كل وقت.

واندفاع الغرب نحو الحرية الشخصية بلا ضابط جعلهم يبيحون الشذوذ الجنسى أو ما نسميه باللواط، وها هم أولاء يعرفون كيف جلبوا لأنفسهم بذلك مرضا لا يمكن مقاومته، وينتهى بالإنسان الشاذ إلى الفناء وهو مرض (الايدز)، ويعودون إلى التفكير فى مقاومة هذا المرض والقضاء عليه.

وكان الغرب يحرم الطلاق وتعدد الزوجات، وها هم أولاء يعودون إلى إباحة الطلاق وإباحة تعدد الزوجات رويدا رويدا بعد أن قاسوا من نظام الخليلات ما قاسوا، وبعد أن أدركوا أنه فى فترة من الفترات تصبح الحياة الأسرية جحيما لا يطاق وعذابا لا يحتمل.

والخمر وإطلاقهم العنان لأنفسهم فى تناولها جعلهم أمام حوادث سيارات وحوادث انتحار، وجرائم خلقية، واجتماعية لا عداد لها، بل تتزايد عاما بعد عام، وهم سائرون ببطء نحو تحريم الخمر ولا ريب.

وإطلاق الغرب لحرية الاختلاط والمعاشرة الجنسية ونظام الصداقة لا الزواج جلب عليهم ملايين الأطفال الذين لا يعرفون لهم أبا، والذين تضطر الدولة إلى تبنيهم، والذين تمتلئ نفوسهم بمشاعر الحقد والكراهية للمجتمع وللحياة .. مما يؤكد عظمة الإسلام فى تشريعاته للأسرة ولنظام المجتمع.

وهكذا يسير الغرب رويدا رويدا إلى إدراك فساد نظمه الاقتصادية والاجتماعية والخلقية والأسرية، ويأخذ شيئا فشيئا فى إدراك عظمة تشريعات الإسلام، وفى ضرورة العمل بها مهما تأخر الوقت، ومهما كان فى ذلك مرارة وأية مرارة على أنفسهم.

وليس اعتناق الكثير من مفكرى الغرب للإسلام بالشىء الغريب أو العجيب، فإن هؤلاء المفكرين لا يقدمون على شىء إلا بعد روية وتفكير وتأمل ودراسة، وهم قد وجدوا فى الإسلام ضالتهم المنشودة، وحلمهم الأبدى؛ وبهرهم من الإسلام عظمته فى عقيدة التوحيد وفى شرائعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفى أفقه الإنسانى الرحب إلى أبعد الحدود، وفى كل جانب من جوانب الحياة والفكر والعمل والإبداع.

وكان صديقنا الخالد المستشرق المجرى عبد الكريم جرمانوس يعتز هو ورفيقة حياته الحاجة عائشة بالإسلام، ويقول: إننى وزوجتى المجريان المسلمان الوحيدان، وكتب عن الإسلام، وعن إسلامه هو، أروع الفصول.

وها هو ذا جارودى الذى انقلب من المسيحية إلى الشيوعية، يعود من الشيوعية إلى اعتناق الإسلام، ويرى فيه ضرورة إنسانية لعلاج كل مشكلات الحياة والعالم.

وماذا نقول؟

أنقول: إن اعتناق الغرب للإسلام أمر حتمى لابد منه؟

أم نقول: إن الغرب يسير رويدا رويدا نحو الإسلام؟

أم نقول: إنه لا خيار للغرب، إما أن يعتنق الإسلام، وإما أن يسير إلى الفناء، مهما حكمته روح التعصب والجنس وغطرسة الكبرياء.

إن فساد نظام التفرقة العنصرية فى الغرب، ونظام الاقتصاد الغربى الذى قاد العالم إلى عشرات الحروب العالمية المدمرة، وفساد نظام المغرب الاجتماعى الأسرى، وشيوع الإلحاد والكفر والخروج عن نطاق كل عقل وكل تفكير فى مذاهبه المادية المنحرفة، بل وفساد نظامه السياسى الذى مزق العالم إلى دويلات صغيرة، وقاده نحو التناحر والخلافات الدولية التى لا تنتهى، والذى أخضع بالقوة المادية نحو ربع العالم للاستعمار البغيض، وعجزه الكامل عن الوصول إلى نظام الإسلام فى الوحدة العالمية دون نظر إلى الجنس، وإيمان الغرب أن الغاية تبرر الوسيلة، وأنه هو وحده سيد العالم ومن عداه من الشعوب خدم وعبيد وتابعون ولا حقوق لهم أمام حقوق السيد المتبوع وإباحة الغرب لنفسه فى نهب ثروات الأمم الفقيرة والضعيفة.

كل ذلك يجعل الغرب يقف أما خيار صعب: إما أن يعود إلى النظام السوى، وإما أن يسير إلى الفناء، والنظام السوى لا معنى له فى العرف إلا الإسلام، وإلا شريعة الله الخالدة،

أمانة الكلمة وغيرها

-١-

أمانة الكلمة فريضة يلزم الإنسان بها فطرته وإنسانيته وكرامته وضميره، ويلزم بها دينه أولا وقبل كل شيء.

أمانة الكلمة تستلزم الصدق، والصدق هو شعار النجاح في الحياة، والتوفيق في العمل، والنصر في معارك البناء، فالصدق يهدى إلى البر، والكذب يهدى إلى الفجور، والفجور في النار والصدق يرضى عنه الله والملائكة والناس، أجمعون والكذب يغضب كل شريف، ويعيب كل فاضل والصدق يرضى الله، وكل إنسان كريم، وليس وراء ذلك غاية .. وفي الحديث الشريف:

"آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد اخلف وإذا اؤتمن خان".

وأمانة الكلمة تقتضى الوفاء بالوعد، والالتزام بالعهد، وما أجمل أن تكون مواعيد الإنسان دقيقة حاسمة لا يتقدم فيها ولا يتأخر، فإذا أعطى موعدا لإنسان التزم به، وكان دقيقا فيه وتحمل المسئولية عنه.

وأمانة الكلمة تقتضى البعد عن الغيبة والنميمة والوشاية والكلمة التي تثير العداوة، أو تدعو إلى الخصومة والبغضاء بين الناس .. فليس أجدى على المجتمع من أن يسود السلام الاجتماعي بين الناس.

وأمانة الكلمة تقتضى كذلك البعد عن الزيف والغش والرياء والنفاق وعن الكلمة الماجنة، وعن كلمة الفاحشة، وعن كل ما يثير الغرائز، أو يدعو إلى الرذيلة.

إن الإنسان المؤمن بالقرآن، والذي يردد كلماته الطاهرة على لسانه صباح مساء، لا يمكن أن يقبل النطق بكلمة سيئة وفي القرآن الكريم ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾.

(١١٤ سورة النساء)

ومن أقبح القبيح ما صرنا نسمعه من شبابنا من كلمات سيئة ينطقون بها ضلالا ودائما، ويظنون أو يتوهمون أنهم يحسنون بذلك صنعا، وأنهم يرفعون الكلفة فيما بينهم، وهم فى ذلك ضالون مضلون، أو واهمون مخدوعون.

فى الجيل الماضى كانت الكلمة التى تخرج من فم الناس دعوة إلى الخير والصحة والشفاء، أما اليوم فصرنا نسمع منهم سبا للآباء، ولعنا للأمهات، وتزيينا للرذيلة، وحضا على الشر، وكراهية للفضيلة.

ويتعلم الطفل ذلك فينشأ على فاحش القول، وسىء الآداب، وذميم الأخلاق وأولى بنا أن تستقيم الكلمة فى أفواهنا، وأن تكون كلمة خير يرضى عنها الله ورسوله، لننال الثواب عليها، والأجر فيها.

إن الإنسان الملتزم بقيم الإسلام ومثالياته، عليه أن يكون المثل الكامل لشخصية المسلم الملتزم بما أمر الله، إيمانا بفكر الإسلام وقدسية مبادئه وكتابه الحكيم، وعملا بما فرض الله، وتركا لما نهى عنه، وقولا صالحا يردد، فى فمه ليدعو به إلى الفضيلة، وليحذر به من الرذيلة، وتلك هى أمانة الكلمة فى فم الإنسان المسلم الكلمة التى تعبر عن الالتزام، وتنطق بالحق، وتدعو إلى الخير وتلتزم الصدق.

وما أكثر ما يجب أن يتحلى به الإنسان المسلم، الذى يردد كتاب الله الخالد العظيم على فمه، وينطق به كل وقت، ويترنم به كل لحظة.

وليس كأمانة الكلمة شىء، وليس مثلها دعوة إلى كل كمال، ودعوة إلى كل فضيلة.

وأمانة الكلمة تقتضى إعلاما إسلاميا نزيها نظيفا يتحرى الحقيقة، ويدافع عنها، وينطق بها، ويدعو إليها ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

وأمانة الكلمة تقتضى صحافة نزيهة، وأناشيد تدعو إلى الرجولة والخير، ومسرحا متقدما ليس فيه ما يثير الغرائز، أو يدعو إلى الشر، وتقتضى تربية جادة لأبنائنا وشبابنا، ليستقيموا على الجادة، وليدافعوا دائما عن الحق، وليكونوا أبدا نماذج حية للصدق والخير والدعوة الصالحة.

وجدان المسلم

الوجدان هو أعماق الشعور، هو مخزون المشاعر، هو أرق عواطف الإنسان، هو السعادة والإحساس بجمال الحياة وجمال الفضيلة وجمال الكون.

ووجدان المسلم هو أنبل عواطفه، وأرق أحاسيسه، وأسمى مشاعره. هو شيء فى رقة الزهر، وجمال الفجر، وشذى العطر.

هو الضمير الحى، والروح المطمئنة والنفس الراضية، هو السعادة الكاملة التى ترفرف بأجنحتها البيضاء على كل آفاق الإنسان وتفكيره وروحه.

ووجدان المسلم هو الإنسانية النبيلة المهذبة الرفيعة الساعية إلى خير الدنيا والآخرة .. هو الألم والأمل، الألم لعذاب المعذبين، وانين الثكلى، وصوت المحرومين، والأمل فى سعادة شاملة تعم الناس جميعا، وفى سلام شامل يجمع البشر كلهم على كلمة سواء من الحب والتعاون والرغبة الصادقة فى نشر الرفاهية على الأرض.

وجدان المسلم يتمثل لك فى دموع الشوق الروحى لرضاء الله، ودموع الحزن الشديد كلما ألم الإنسان بمعصية أو فكر فيها.

هذا الوجدان هو الذخيرة التى تقى الإنسان عذاب الدنيا والآخرة، والسلاح الذى يدفع به عن نفسه عذاب الحياة وشرور الحياة.

ولنقرأ قوله تعالى:

﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض، أعدت للمتقين، الذين ينفقون فى السراء والضراء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله، فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار، خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾.

هذا الوجدان الرقيق، الذى يشعر بالذنب ويحاسب النفس عليه، والذى يحفز صاحبه على عمل الخير، وصنع المعروف، والعفو عن المسىء .. هو ضمير المسلم، هو الدين الكامن فى أعماق نفسه، هو ثمرة الإيمان العميق الذى امتزج بكل ذرة من ذرات النفس والروح والبدن. هو المسيطر على كل شىء فى الإنسان، هو الآمر الناهى والحاكم على كل عمل يعمله.

وجدان المسلم يدفعه إلى العمل الصالح، إلى حب الخير إلى صنع المعروف، إلى الانتماء الحقيقى لله، إلى الالتزام الكامل بأحكام الشريعة، إلى طهارة الروح والبدن فى السر والعلن، مراقبة دقيقة تتطلب المزيد من صنع الخير وإسداء المعروف والبر بالناس والفقراء والمحرومين.

وجدان المسلم قطعة من روحه، إنه الذى يملؤه سعادة وفرحا حينما يقدم عملا نافعا، أو معونة شريفة لإنسان محتاج.

إن الإسلام يملأ وجدان المسلم بالأشواق الروحية الصالحة السامية الداعية إلى حب الفضيلة، والمحافظة على الأمانة، والوفاء بالعهد، والوقوف عند الوعد، والعطف على اليتامى والمساكين، والفقراء والمحرومين ..

الإسلام يغذى عاطفة الخير فى الإنسان المسلم، ويدفعه إلى كل عمل نافع، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ..

وهنيئا للعاملين، وبشرى للأوفياء بعهد الله والناس.

-٣-

العقيدة والشريعة

الإسلام العظيم، وديننا الخالد، دين الإنسانية كلها، دين الخير والرحمة والأمانة والوفاء، عقيدة يؤمن بها المسلم، وشريعة عمل يلتزم بها فى سلوكه وحياته كل لحظة من لحظات عمره..

إنه عقيدة وعمل وفق الشريعة.

إنه إيمان وسلوك على طريق الإيمان.

إنه أيديولوجية كاملة بانية متسامية، لا يفصل فيها العمل عن العقيدة، ولا العقيدة عن العمل.

إنه السمو بالإنسان روحا وبدنا، قلبا وجارحة، نفسا وسلوكا .. إنه طهارة الروح وطهارة الجسم، وطهارة الخلق، وطهارة العرض، وطهارة الشرف.

والإسلام ليس قولا فحسب، بل قول وفعل، وليس غاية فحسب، بل هو غاية وعمل وسلوك من أجل الوصول إلى الغاية ..

الغاية هي رضاء الله، وهي خلافة الله في الأرض، وهي إدراك أعلى الدرجات عند الله في الدنيا والآخرة.

والعمل هو كل ما يوصل الإنسان لبلوغ هذه الغاية من عمل وسلوك وآداب وأخلاق وفضائل وقول ونية وعزيمة صادقة مخلصة لله رب العالمين.

الإسلام في عقيدته توحيد خالص، لا شرك فيه، إيمان كامل لا تشوبه شائبة من رياء أو زيف، وهو في شريعته عبادات وطاعات وفرائض وحدود وسلوك وأخلاق وآداب ومثل عالية شريفة، يعمل بها ولها المسلم ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

المسلم هو مثل عال للأمانة والرحمة والخير والحق والعدل والإحسان والصدق والوفاء، وأداء الحقوق، والالتزام بالمسئولية، هو الضوء الباهر في ظلمات الحياة، هو العزم المتجدد إذا ما وهنت عزائم الرجال، وانطفأ مصباح الأمل.

المسلم صادق أمين، وفي أبي، شريف عفيف، كريم رحيم، قوي في الحق، إنسان في نوائب المعروف .. وقد وصف الله عز وجل رسوله الكريم والمؤمنين من أصحابه فقال عز وجل:

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار، رحماء بينهم، تراهم ركعا سجدا، يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾.

رحم الله أمى الطيبة.

كانت كثيرا ما تقول لى: احسب يا ابنى حساب الزمن .. وكنت أقول لها: إننا بخير، والزمن بخير، فترد على: اعمل حسابه فى العسر واليسر، فأقهقه ضاحكا: ومتى كانت حساباتنا ذات أهمية؟

وأمى كانت تنطق بروح الإسلام، وكنت أنا أصدر عن روح الإنسان.

إن الزمن فى الإسلام أمانة ومسئولية وحساب دقيق، سواء بالنسبة للأفراد أم المجتمعات أم الأمم، ومن ثم كان التخطيط ضرورة، وكان العمل من أجل المستقبل فى الإسلام مسئولية .. والإنفاق من الزمن يحب أن يكون بحساب دقيق، وأن تمتلئ الدقائق والساعات والأيام بالعمل، وأن يكون هذا العمل مثمرا ولخير الناس، ولصالح المجتمع، وفى الحديث الشريف: "خير الناس أنفعهم للناس" وليس بمعاد للإسلام أكبر من قول العامة: الأيام طويلة، وبكرة أعمل، والزمن ممتد.

وفى الحديث الشريف: "أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا" فالعمل للدنيا يجب أن يكون دائما ومستمرا ومواكبا لمطالب الحياة، دقيقة بدقيقة، وساعة بساعة، ويوما بيوم، والعمل للآخرة يجب أن يكون كل لحظة كأن الإنسان قد يجيئه أجله الغد قبل غدالغد.

وفى القرآن الكريم من سورة الإسراء (آيتى ١٢ و١٣) "وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية الليل، وجعلنا آية النهار مبصرة، لتبتغوا فضلا من ربكم، ولتعلموا عدد السنين والحساب، وكل شىء فصلناه تفصيلا؛ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا" والمعنى: أن الزمن محسوب، وأن النهار ساعات عمل وكفاح فى الحياة، وأن الإنسان مسئول عن عمله وعن وقته فيم أنفقه، وأن الحساب العادل أمامه يوم القيامة.

وإنفاق الزمن فى العمل، وحساب الإنسان لنفسه عن نوع هذا العمل: أخير أم شر، وسعيه الدائب لرضاء الله ونفع الناس فى هذا الزمن الذى يحياه .. واجب إسلامى قبل أن يكون واجبا ذاتيا.

ومن ثم فأنا لا أستسيغ أن يضيع الناس أوقاتهم فى المقاهى بلا عمل، وكذلك فى الأندية .. الأولى تحويل المقاهى والأندية إلى أماكن عمل وإنتاج وتعليم؛ ونحن أمم نامية يجب أن يكون العمل شعارنا فى الحياة، وأن يكون حسابنا للزمن دقيقا ومخططا، ومن أجل ذلك قامت فى الأمم المتحضرة وزارات للتخطيط، وقد عرف الإنجليز بحساباتهم الطويلة الأمد، وتخطيطهم الممتد لمائة عام مقبلة إن ذلك هو روح ديننا، علينا أن نعمل بروح الإسلام، لأنه يقودنا إلى التقدم وإلى الحضارة، والتخلى عن روح الإسلام هو سبب ضعفنا فى الماضى والحاضر .. وإنى لأقول لإخواننا العراقيين والإيرانيين المسلمين بهذه المناسبة: أما يكفى حربكم الطويلة لهلك النفس طيلة ستة أعوام؟!

فهرست الكتاب